قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات].

• وقولُه ﷺ: «**وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ**»:

هذَا مِن خصالِ التَّقوَىٰ، ولَا تتمُّ التَّقوَىٰ إلَّا بهِ، وإنَّما أفردَهُ بالذِّكرِ؛ للحاجةِ إلَىٰ بيانِهِ؛ فإنَّ كثيراً مِن النَّاسِ يظنُّ أنَّ التَّقوَىٰ هِيَ القيامُ بحقِّ اللهِ، دونَ حُقُوقِ عبادِهِ؛ فنصَّ علَىٰ الأمرِ بإحسانِ العشرةِ للنَّاسِ. والجمعُ بينَ القيامِ بحُقُوقِ اللهِ وحُقُوقِ عبادِهِ عزيزٌ جدّاً؛ لَا يقوَىٰ عليهِ إلَّا الكُمَّلُ مِن الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ!

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ، مِن حديثِ أَبي هُرَيرةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**أكملُ المؤمنينَ إيماناً: أحسنُهم خُلُقاً**»[1].

وخرَّجَا، مِن حديثِ عائشةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسنِ خُلُقِهِ درجاتِ الصَّائِمِ القائِمِ**»[2].

وخرَّجَا، مِن حديثِ أَبي الدَّرداءِ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَا مِن شيءٍ يُوضَعُ في الميزانِ أثقلَ مِن حُسنِ الخُلُقِ، وإنَّ صاحبَ حُسنِ الخُلُقِ لَيبلُغُ بهِ درجةَ صاحبِ الصَّومِ والصَّلاةِ**»[3].

---

(١) أخرجَهُ أحمدُ (٢/ ٢٥٠)؛ وأبو داودَ (٤٦٨٢)؛ والتِّرمِذيُّ (١١٦٢)، وقالَ: «حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ»؛ وصحَّحَه الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صَحيح التَّرغيبِ والتَّرهيب» (٢٦٦٠).

(٢) أخرجَهُ أحمدُ (٦/ ٩٠)؛ وأبو داودَ (٤٧٩٨) ـ بلفظِ: «**درجة الصَّائِم القائِم**»؛ والحاكمُ (١/ ٦٠) ـ وصحَّحَهُ علَىٰ شرطِ الشَّيخَيْنِ ـ، قالَ الشَّيخُ الألبانيُّ: «ووافقه الذَّهبيُّ، وهُوَ كمَا قالَا؛ لولَا اختلافٌ في سماعِ المطلب مِن عائشةَ»، ثُمَّ قالَ: «لكنَّ الحديثَ ـ علَىٰ كلِّ حالٍ ـ صحيحٌ بمَا تقدَّمَ». انظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» (٧٩٤).

(٣) أخرجَهُ أحمدُ (٦/ ٤٤٢)؛ وأبو داودَ (٤٧٩٩)؛ والتِّرمِذيُّ (٢٠٠٢)، وقالَ: «حديثٌ =

وخرَّجَ ابنُ حِبَّانَ، مِن حديثِ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرٍو، عَن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**ألَا أخبرُكم بأحبِّكم إلَىٰ اللهِ، وأقربِكم منِّي مجلساً يومَ القيامةِ؟**»؛ قالُوا: بلَىٰ؛ قالَ: «**أحسنُكم خُلُقاً**»[١].

وخرَّجَ أبو داودَ، مِن حديثِ أَبي أُمامةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**أَنا زعيمٌ ببيتٍ في أعلَىٰ الجنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُهُ**»[٢].

وقدْ رُوِيَ عَن السَّلَفِ تفسير (حُسنِ الخُلُقِ):

فعَن الحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ، قالَ: «حُسْنُ الخُلُقِ: الكرمُ، والبذلةُ، والاحتمالُ».

وعَن ابنِ المُبارَكِ، قالَ: «هُوَ: بَسْطُ الوجهِ، وبذلُ المعروفِ، وكفُّ الأذَىٰ».

وقالَ الإمامُ أحمدُ: «حُسْنُ الخُلُقِ: أَن تحتملَ مَا يكونُ مِن النَّاسِ».

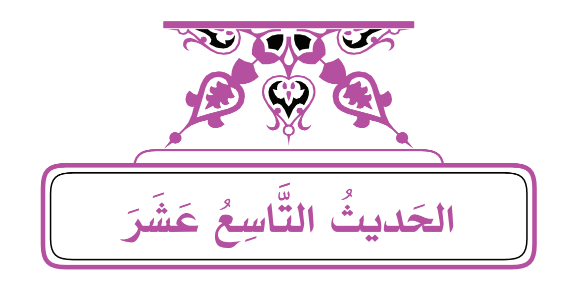
وقالَ بعضُ أهلِ العِلْمِ: «حُسْنُ الخُلُقِ: كظمُ الغيظِ للهِ، وإظهارُ الطَّلاقةِ والبِشرِ إلَّا للمُبتَدِعِ والفاجِرِ، والعفوُ عَن الزَّالِّين إلَّا تأديباً، أو إقامةَ حدٍّ، وكفُّ الأذَىٰ عَن كلِّ مُسلِمٍ أَو معاهَدٍ إلَّا تغييرَ منكرٍ، وأخذاً بمظلمةٍ لمظلومٍ مِن غيرِ تعدٍّ».

* * *

= حَسَنٌ صَحيحٌ»، لكنَّ الجزءَ الثَّاني مِن الحديثِ ـ وهُوَ قولُه ﷺ: «**إنَّ صاحبَ حسنِ الخُلُقِ...**» ـ لم أرَهُ إلَّا عِندَ التِّرمذيِّ، من طريقِ قبيصةَ بنِ اللَّيثِ، عَن مطرفٍ، عَن عطاءَ بهِ، وقالَ: «هذَا حديثٌ غريبٌ مِن هذَا الوَجْهِ».
قالَ الشَّيخُ الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٨٧٦): «وسندُهُ جيِّدٌ»، وقدْ صحَّحَه كلَّه في «صَحيح الترغيب» (٢٦٤١).

(١) أخرجَهُ ابن حِبَّانَ (٤٨٥) ـ كمَا ذكرَ المؤلِّفُ ـ، وأخرجَهُ ـ قبلَ ذلك ـ أحمدُ في «مُسنده» (٢/٢١٧)، وصحَّحَ إسنادَهُ الشَّيخُ أحمدُ شاكر في تعليقِهِ علَىٰ «المسند» برَقم (٧٠٣٥).

(٢) أخرجَهُ أبو داودَ (٤٨٠٠)؛ وحسَّنَه الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صَحيح التَّرغيبِ والتَّرهيبِ» (٦٤٨)، وانظر بحثَه في «الصَّحيحة» (٣٧٣).



الحَديثُ التَّاسِعُ عَشَرَ

عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ:

كُنْتُ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ يوماً؛ فقالَ لِي: «يَا غُلَامُ؛ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ؛ فاسْأَلِ اللهَ، وإذَا اسْتَعَنْتَ؛ فاسْتَعِنْ بِاللهِ.

واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ علَىٰ أَن يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَم يَنْفَعُوكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وإنِ اجْتَمَعُوا علَىٰ أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَم يَضُرُّوكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ؛ رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وقالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وفي رِوَايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذِيِّ:

«احْفَظِ اللهَ تَجِدهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إلَىٰ اللهِ في الرَّخَاءِ؛ يَعْرِفكَ في الشِّدَّةِ، واعْلَمْ أنَّ مَا أَخْطَأَكَ؛ لَم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، ومَا أَصَابَكَ؛ لَم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، واعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً».

الشَّرْحُ

هذَا الحديثُ يتضمَّنُ وَصَايَا عظيمةً، وقواعدَ كُليَّةً مِن أهمِّ أُمورِ الدِّينِ؛ حتَّىٰ قالَ بعضُ العُلماءِ: «تدبَّرتُ هذَا الحديثَ؛ فأدهشَنِي، وكدتُّ أطيشُ! فوَاأسفِي مِن الجهلِ بهذَا الحديثِ، وقلَّةِ التَّفهُّمِ لمعنَاهُ!».

قلتُ: وقدْ أفردتُ لشرحِهِ جزءاً كبيراً[(١)].

• فقولُه ﷺ: «**احفظِ اللهَ**»:

يَعنِي: احفظْ حدودَه، وحُقُوقَه، وأوامرَه، ونواهيَهُ، وحِفظُ ذلكَ: هُوَ الوقوفُ عندَ أوامرِهِ بالامتثالِ، وعندَ نواهيهِ بالاجتنابِ، وعندَ حدودِهِ؛ فلا يتجاوزُ مَا أمرَ بهِ وأذنَ فيهِ إلَىٰ مَا نَهَىٰ عَنهُ.

فمَن فعلَ ذلكَ؛ فهُوَ مِن الحافظينَ لحدودِ اللهِ؛ الَّذِينَ مدحَهم اللهُ في كتابِهِ؛ قالَ تعالَىٰ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [قٓ]؛ وفُسِّر (الحفيظُ) هَاهُنا بـ: الحافظِ لأوامرِ اللهِ، وبالحافظِ لذنوبِهِ ليتوبَ مِنها.



• وقولُه ﷺ: «**يحفظْكَ**»:

يَعنِي: أنَّ مَن حفظَ حدودَ اللهِ، وراعَىٰ حقوقَهُ؛ حفظَهُ اللهُ؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ؛ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وحفظُ اللهِ لعبدِهِ يدخلُ فيهِ نَوعانِ:

أَحدُهما: حفظُهُ لهُ في مصالِحِ دُنياهُ؛ كحفظِهِ في بدنِهِ، وولدِهِ، وأهلِهِ، ومالِهِ؛ قالَ ﷻ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: «هُم الملائكةُ؛ يحفظونَهُ بأمرِ اللهِ، فإذَا جاءَ القَدَرُ؛ خلّوا عنهُ».

ومَن حَفِظَ اللهَ في صِباهُ وقوَّتِهِ؛ حَفِظَهُ اللهُ في حالِ كِبَرِهِ وضَعفِ قوَّتِهِ، ومتَّعهُ بسمعِهِ وبصرِهِ وقوَّتِهُ وعقلِهُ:

كانَ بعضُ العلماءِ قدْ جاوزَ المئةَ سنةً؛ وهُوَ ممتَّعٌ بقوَّتِهِ وعقلِهِ؛ فوثبَ

---

(١) هذَا الشَّرحُ هُوَ «نور الاقتباس في مشكاةِ وصيَّةِ النَّبيِّ ﷺ لابنِ عبَّاسٍ»، وهُوَ مطبوعٌ متداوَلٌ.

يوماً وثبةً شديدةً؛ فعوتبَ في ذلكَ؛ فقالَ: «هذِهِ جوارحُ حفظنَاهَا عَن المعاصِي في الصِّغَرِ؛ فحفظَها اللهُ علينَا في الكِبَرِ»[(١)]!

وعكسُ هذَا: أنَّ بعضَ السَّلَفِ رَأَىٰ شيخاً يسألُ النَّاسَ؛ فقالَ: «إنَّ هذَا ضيَّعَ اللهَ في صِغَرِهِ؛ فضيَّعَهُ اللهُ في كِبَرِهِ».

وقدْ يحفظُ اللهُ العبدَ بصلاحِهِ بعدَ موتِهِ في ذُرِّيَّتِهِ؛ كمَا قيلَ في قولِهِ تعالَىٰ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]: إنَّمَا حُفِظَا بصلاحِ أَبيهما؛ قالَ سعيدُ بنُ المسِّيبِ لابنِهِ: «لأزيدنَّ في صلاتِي مِن أجلِكَ؛ رجاءَ أَن أُحفظَ فيكَ»؛ ثُمَّ تلَا هذِهِ الآيةَ.

وقالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ: «مَا مِن مؤمنٍ يموتُ؛ إلَّا حَفِظَهُ اللهُ في عقِبِهِ، وعقِبِ عقِبِهِ».

وقالَ ابنُ المنكدرِ: «إنَّ اللهَ ليحفظُ بالرَّجلِ الصَّالِحِ ولدَهُ، وولدَ ولدِهِ، والدُّويراتِ الَّتِي حولَهُ؛ فمَا يزالونَ في حفظٍ مِن اللهِ وسترٍ».

ومِن عجيبِ حفظِ اللهِ لمَن حَفِظَهُ: أَن يجعلَ الحيواناتِ المؤذيَةَ بالطَّبعِ حافظةً لهُ مِن الأذَىٰ! كمَا جرَىٰ لسفينةَ ـ مولَىٰ النَّبيِّ ﷺ ـ؛ حيثُ كُسِرَ بِهِ المركبُ[(٢)]، وخرجَ إلَىٰ جزيرةٍ؛ فرَأَىٰ الأسدَ؛ فجعلَ يمشِي معهُ؛ حتَّىٰ دلَّهُ علَىٰ الطَّريقِ، فلمَّا أوقفَهُ عليهِ؛ جعلَ يُهَمْهِمُ ـ كأنَّهُ يودِّعُهُ ـ ثُمَّ رجعَ عنهُ[(٣)]!

ورُؤِيَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ نائماً في بستانٍ، وعندَه حيَّةٌ في فمِهَا طاقةُ نرجسٍ؛ فمَا زالت تذبُّ عنهُ حتَّىٰ استيقظَ!

---

(١) هذَا العالِمُ هُوَ: القاضِي، أبو الطَّيِّب، طاهرُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ طاهرٍ، الطَّبريِّ، وقدْ كان ممتَّعاً بحواسِهِ كلِّها؛ فكانَ يقضِي، ويُفتي، ويدرِّسُ، ويحضرُ المواكبُ، حتَّىٰ ماتَ عَن مئةِ سنة وسنَتَيْنِ! والخبرُ مذكورٌ في «البداية والنِّهاية»، في وفَيَاتِ سنة (٤٥٠هـ).

(٢) في البَحْرِ.

(٣) أخرجَه الحَاكِمُ (٣/ ٦٠٦)؛ والطَّبَرَانِيُّ (٧/ ٨٠، ٨١).

وعكسُ هذَا: أنَّ مَن ضيَّعَ اللهَ؛ ضيَّعَهُ اللهُ؛ فضاعَ بينَ خلقِهِ؛ حتَّىٰ يدخلَ عليهِ الضَّررُ والأذَىٰ ممَّنْ كانَ يرجُو نفعَهُ مِن أهلِهِ وغيرِهم؛ كمَا قالَ بعضُ السَّلَفِ: «إنِّي لأعصِي اللهَ؛ فأعرفُ ذلكَ في خُلُقِ خادِمِي ودابَّتِي»!

النَّوعُ الثَّانِي: مِن الحفظِ؛ وهُوَ أشرفُ النَّوعَيْنِ: حِفظُ اللهِ للعبدِ في دينِهِ وإيمانِهِ؛ فيحفظُه في حياتِهِ مِن الشُّبهاتِ المُضِلَّةِ، ومِن الشَّهواتِ المحرَّمَةِ، ويحفظُ عليهِ دينَهُ عندَ موتِهِ؛ فيتوفَّاهُ علَىٰ الإيمانِ؛ فاللهُ ﷻ يحفظُ المؤمنَ الحافظَ لحدودِ دينِهِ، ويحولُ بينَه وبينَ مَا يفسدُ عليهِ دينَه؛ بأنواعٍ مِن الحفظِ، وقدْ لا يشعرُ العبدُ ببعضِها، وقدْ يكونُ كارِهاً لها! كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف].

وقالَ الحسنُ وذكرَ أهلَ المعاصِي: «هانُوا عليهِ؛ فعَصَوْهُ، ولَو عزُّوا عليهِ؛ لعَصَمَهم»!

وقالَ ابنُ مسعودٍ: «إنَّ العبدَ ليهمُّ بالأمرِ مِن التِّجارةِ والإمارةِ؛ حتَّىٰ يُيسرَ لهُ؛ فينظرُ اللهُ إليهِ؛ فيقولُ للملائكةِ: اصرفُوه عنهُ؛ فإنِّي إن يسَّرتُه لَه؛ أدخلتُه النَّارَ؛ فيصرفُهُ اللهُ عنهُ؛ فيظلُّ يتطيَّرُ؛ يقولُ: سبقنِي فلانٌ، دهانِي فلانٌ! ومَا هُوَ إلَّا فضلُ اللهِ ﷻ».

• قولُه ﷺ: **«احفظِ اللهَ؛ تجدهُ تجاهَكَ»**، وفي روايةٍ: «**أمامَكَ**»:

معناهُ: أنَّ مَن حَفِظَ حدودَ اللهِ، وراعَىٰ حقوقَهُ؛ وجدَ اللهَ معهُ في كلِّ أحوالِهِ؛ حيثُ توجَّهَ يحوطُهُ، وينصُرُهُ، ويحفظُهُ، ويوفِّقُهُ، ويسدِّدُهُ؛ فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل]؛ وهذِهِ المعيَّةُ الخاصَّةُ هِيَ المذكورةُ في قولِهِ ـ تعالَىٰ ـ لموسَىٰ وهَارُونَ: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه]؛ فهذِهِ المعيَّةُ الخاصَّةُ تقتَضِي النَّصرَ، والتَّأييدَ، والحفظَ، والإعانةَ، بخلافِ المعيَّةِ المذكورَةِ في قولِهِ تعالَىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ

﴿مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧]؛ فإنَّ هذِهِ المعيَّةَ تقتَضِي عِلْمَهُ، واطِّلاعَهُ، ومُراقبَتَهُ لأعمالِهم؛ فهِيَ مُقتضيَةٌ لتخويفِ العبادِ منهُ.

• قولُه ﷺ: «**تعرَّفْ إلَىٰ اللهِ في الرَّخاءِ؛ يَعْرِفكَ في الشِّدَّةِ**»:

يَعنِي: أنَّ العبدَ إذَا اتَّقَىٰ اللهَ، وحفظَ حدودَهُ، وراعَىٰ حقوقَهُ في حالِ رَخائِهِ؛ فقد تعرَّفَ بذلكَ إلَىٰ اللهِ، وصارَ بينَهُ وبينَ ربِّه معرفةً خاصَّةً؛ فعرَفَهُ ربُّهُ في الشِّدَّةِ، ورَعَىٰ لهُ تعرُّفَهُ لهُ في الرَّخاءِ؛ فنجَّاهُ مِن الشَّدائدِ بهذِهِ المعرفةِ. وهذِهِ معرفةٌ خاصَّةٌ؛ تقتَضِي قربَ العبدِ مِن ربِّه، ومحبَّتِهِ لهُ، وإجابتِهِ لدُعائِهِ.

فمعرفةُ العبدِ لربِّه نوعانِ:

أَحدُهما: المعرفةُ العامَّة؛ وهِيَ: معرفةُ الإقرارِ والتَّصديقِ والإيمانِ؛ وهذِهِ عامَّةٌ للمؤمنينَ.

والثَّاني: معرفةٌ خاصَّةٌ؛ تقتَضِي ميلَ القلبِ إلَىٰ اللهِ بالكُليَّةِ، والانقطاعَ إليهِ، والأُنسَ بهِ، والطَّمأنينةَ بذكرِهِ، والحياءَ مِنهُ، والهيبةَ لهُ.

وهذِهِ المعرفةُ الخاصَّةُ هِيَ الَّتِي يدورُ حولَها العارفونَ؛ كمَا قالَ بعضُهم: «مساكينُ أهلُ الدُّنيَا؛ خرجُوا مِنها ومَا ذَاقوا أطيبَ مَا فِيها»! قيلَ لهُ: ومَا هُوَ؟ قالَ: «معرفةُ اللهِ ﷻ».

ومعرفةُ اللهِ ـ أيضاً ـ لعبدِهِ نوعانِ:

أحدهما: معرفةٌ عامَّةٌ؛ وهِيَ: عِلْمُه ـ سُبحانَهُ ـ بعبادِهِ، واطِّلاعُه علَىٰ مَا أسرُّوهُ ومَا أعلنُوهُ.

الثَّانِي: معرفةٌ خاصَّةٌ؛ وهِيَ تقتَضِي محبَّتَهُ لعبدِهِ، وتقريبَه إليهِ، وإجابةَ دُعائِهِ، وإنجاءَهُ مِن الشَّدائِدِ؛ وهِيَ المشارُ إليهَا بقولِهِ ﷺ ـ فيمَا يحكِي عَن ربِّهِ ـ: «**ولَا يزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّىٰ أُحِبَّهُ؛ فإذَا أحببتُه؛ كنتُ سمعَهُ الَّذِي يسمعُ بهِ، وبصرَه الَّذِي يبصرُ بهِ، ويدَهُ الَّتِي يبطشُ بِهَا، ورجلَهُ الَّتِي**

يمشِي بِهَا، فلَئِنْ سألَنِي؛ لأُعطينَّهُ، ولَئِنِ استعاذَنِي؛ لأُعيذَنَّهُ»(١).

وبالجملةِ؛ فمَن عاملَ اللهَ بالتَّقوىٰ والطَّاعةِ في حالِ رَخائِهِ؛ عاملَهُ اللهُ باللُّطفِ والإعانةِ في حالِ شِدَّتِهِ.

وخرَّجَ التِّرمِذيُّ، مِن حديثِ أَبي هُرَيرةَ ﷺ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَن سرَّهُ أَن يستجيبَ اللهُ لهُ عِندَ الشَّدائدِ؛ فلْيُكثرِ الدُّعاءَ في الرَّخاءِ**»(٢).



• قولُه ﷺ: «**إِذَا سألتَ؛ فاسألِ اللهَ، وإِذَا استعنتَ؛ فاستعِنْ باللهِ**»:

هذَا مُنتزَعٌ مِن قولِهِ تعالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]؛ فإنَّ السُّؤالَ للهِ هُوَ: دُعاؤُه، والرَّغبةُ إليهِ؛ والدُّعاء هُوَ العِبادَةُ.



• قولُه ﷺ: «**رُفعتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ**» ـ وفي روايةٍ ـ: «**جَفَّ القَلَمُ بمَا هُوَ كائِنٌ**»:

هُوَ كنايةٌ عَن تقدُّمِ كتابةِ المقاديرِ كلِّها، والفراغ مِنها مِن أمدٍ بعيدٍ؛ فإنَّ الكتابَ إذَا فُرِغَ مِن كتابتِهِ، وطالَ عهدُه؛ فقدْ رُفِعتْ عنهُ الأقلامُ، وجَفَّتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الَّتي كُتِبَ بِهَا مِن مدادٍ، وجَفَّتِ الصَّحيفةُ الَّتِي كُتِبَ فِها بالمدادِ المكتوبِ بهِ فِيها. وهذَا مِن أحسنِ الكناياتِ، وأبلغِهَا.

قولُه ﷺ: «**فلَو أنَّ الخَلْقَ جميعاً أرادُوا أَن ينفعوكَ بشيْءٍ لَم يقضِه اللهُ؛ لم يقدِرُوا عليهِ، وإنْ أَرادُوا أَن يضروُّكَ بشيْءٍ لَم يكتبْهُ اللهُ عليكَ؛ لم يقدرُوا عليهِ**»(٣).

(١) هذَا الحديثُ أخرجَهُ البُخَارِيُّ؛ وهُوَ الثَّامن والثَّلاثونَ مِن «الأربعين النَّوويَّة» ـ وسيأتي شَرْحُه (إنْ شاءَ اللهُ).
(٢) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٣٣٨٢)؛ وذكرَهُ الشَّيخُ الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٥٩٣).
(٣) هذه رواية الإمام أحمد، ورواية الترمذي بالمعنىٰ.

المرادُ: أنَّ مَا يصيبُ العبدَ في دُنياهُ ممَّا يضرُّه، أَو ينفعُه؛ فكلُّه مقدَّرٌ عليهِ؛ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قولُه ﷺ: «**واعْلَمْ أنَّ في الصَّبرِ علَىٰ مَا تكرهُ خيراً كثيراً**»؛ يَعنِي: أنَّ مَا أصابَ العبدَ مِن المصائبِ المؤلمةِ، المكتوبةِ عليهِ، إذَا صبرَ عليهَا؛ كانَ لهُ في الصَّبرِ خيرٌ كثيرٌ.

وللمؤمنينَ بالقضاءِ والقَدَرِ في المصائبِ دَرَجتانِ:

إحداهُما: أنَ يرضَىٰ بذلكَ؛ وهذِهِ درجةٌ عاليةٌ رفيعةٌ جدّاً؛ قالَ ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن]؛ قالَ علقمةُ: «هِيَ المصيبةُ تصيبُ الرَّجلَ؛ فيعلمُ أنَّها مِن عندِ اللهِ، ويسلِّمُ لَها ويرضَىٰ».

وقالَ أبو الدَّرداءِ: «إنَّ اللهَ إذَا قضَىٰ قضاءً؛ أحبَّ أَن يُرضَىٰ بهِ».

وقالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ: «أصبحتُ؛ ومَا لِي سرورٌ إلَّا في مواضعِ القضاءِ والقَدَرِ».

فمَن وَصَلَ إلَىٰ هذِهِ الدَّرجةِ؛ كانَ عيشُهُ كلُّهُ في نعيمٍ وسرورٍ؛ قالَ ـ تعالى ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]؛ قالَ بعضُ السَّلَفِ: «الحياةُ الطَّيِّبةُ: هِيَ الرِّضَا والقناعةُ».

وأهلُ الرِّضَا تارَةً يلاحِظونَ حكمةَ المُبتَلِي، وخيرتَه لعبدِهِ في البلاءِ؛ وأنَّه غيرُ متَّهمٍ في قضائِهِ، وتارَةً؛ يلاحِظونَ ثوابَ الرِّضَا بالقضاءِ؛ فينسِيهم ألمَ المَقضيِّ بهِ، وتارةً؛ يلاحِظونَ عظمةَ المُبتَلِي وجلالَه وكمالَه؛ فيستغرقونَ في مشاهدةِ ذلكَ حتَّىٰ لا يشعرونَ بالألمِ! وهذَا يصلُ إليهِ خواصُّ أهلِ المعرفةِ والمحبَّةِ؛ حتَّىٰ ربَّما تلذَّذُوا بمَا أصابَهم؛ لملاحظتِهم صدورَه عَن حبيبِهم!

الدَّرجةُ الثَّانيةُ: أَن يصبرَ علَىٰ البلاءِ؛ وهذَا لمَن لَم يستطعِ الرِّضَا بالقضاءِ. فالرِّضَا فضلٌ مندوبٌ إليهِ مُستحَبٌّ، والصَّبرُ واجبٌ علَىٰ المؤمنِ حتمٌ.

قالَ الحسنُ: «الرِّضَا عزيزٌ، ولكنَّ الصَّبرَ مُعوَّلُ المؤمنِ».

والفَرْقُ بينَ الرِّضَا والصَّبرِ:

أنَّ (الصَّبرَ): كفُّ النَّفسِ وحبسُها عَن التَّسخُّطِ ـ عِندَ وجودِ الألمِ ـ، وتَمنِّي زوالِ ذلكَ، وكفُّ الجوارِحِ عَن العملِ بمُقتَضَىٰ الجَزَعِ.

و(الرِّضَا): انشراحُ الصَّدْرِ وسعتُهُ بالقضاءِ، وتَركُ تمنِّي زوالِ ذلكَ المؤلِمِ؛ وإنْ وجدَ الإحساسَ بالألمِ؛ لكنَّ الرِّضَا يخفِّفُهُ؛ لمَا يباشرُ القلبَ مِن روحِ اليقينِ والمعرفةِ، وإذَا قَويَ الرِّضَا فقدْ يزيلُ الإحساسَ بالألمِ بالكليَّةِ ـ كمَا سبقَ ـ.



• قولُه ﷺ: **«فإنَّ معَ العُسْرِ يُسْراً»**:

هُوَ مُنْتَزَعٌ مِن قَوْلِهِ تعالَىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق].

ومِن لطائفِ أسرارِ اقترانِ الفَرَجِ بالكَرْبِ، واليُسْرِ بالعُسْرِ: أنَّ الكَرْبَ إذَا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهَىٰ؛ حصلَ للعبدِ الإياسُ مِن كَشفِهِ مِن جهةِ المخلوقينَ، وتعلَّقَ قلبُهُ باللهِ وحدَه؛ وهذَا هُوَ حقيقةُ التَّوكُّلِ علَىٰ اللهِ؛ وهُوَ مِن أعظمِ الأسبابِ الَّتِي تُطلَبُ بِهَا الحوائجُ؛ فإنَّ اللهَ يكفِي مَن توكَّلَ عليهِ؛ كمَا قالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وأيضاً؛ فإنَّ المؤمنَ إذَا استبطأَ الفَرَجَ، وأَيِسَ منهُ، بعدَ كثرةِ دُعائِهِ وتضرُّعِهِ، ولَم يظهرْ عليهِ أثرُ الإجابةِ؛ يرجعُ إلَىٰ نفسِهِ باللَّائمةِ؛ وقالَ لَها: إنَّما أُتيتُ من قِبَلِكِ؛ ولَو كانَ فيكِ خيرٌ؛ لأُجبْتُ! وهَذَا اللَّومُ أحَبُّ إلَىٰ اللهِ مِن كثيرٍ منَ الطَّاعاتِ؛ فإنَّه يُوجبُ انكسارَ العبدِ لمولاهُ، واعترافَه لهُ بأنَّه أهلٌ

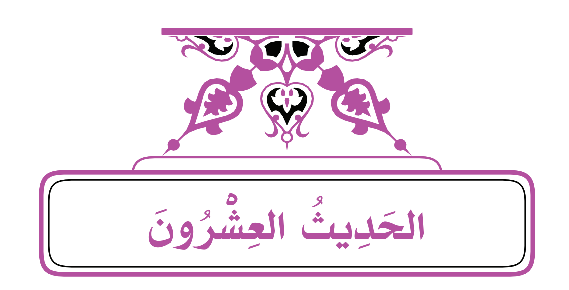
لمَا نزلَ بهِ مِن البلاءِ، وأنَّه ليسَ بأهلٍ لإجابةِ الدُّعاءِ؛ فلذلكَ تسرعُ إليهِ ـ حينَئذٍ ـ إجابةُ الدُّعاءِ، وتفريجُ الكَرْبِ؛ فإنَّه تعالَىٰ عندَ المُنكسِرةِ قلوبُهم مِن أجلِهِ.

عسَىٰ مَا ترَىٰ ألَّا يدومَ وأَن ترَىٰ ... لهُ فَرَجاً ممَّا ألحَّ بهِ الدَّهْرُ

عسَىٰ فَرَجٌ يأتِي بهِ اللَّهُ إنَّهُ ... لَهُ كلَّ يوم في خَليقَتِهِ أمرُ

إذَا لاحَ عُسْرٌ فارْجُ يُسْراً فإنَّه ... قضَىٰ اللَّهُ أنَّ العُسْرَ يتبعُهُ اليُسْرُ





الحَدِيثُ العِشْرُونَ

عن أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:
«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِن كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَىٰ: إِذَا لَم تَسْتَحْيِ؛ فاصْنَعْ مَا شِئْتَ».

رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الشَّرح

• قولُه ﷺ: «إنَّ مِمَّا أدركَ النَّاسَ مِن كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَىٰ»:

يُشيرُ إلَىٰ أنَّ هذَا مأثورٌ عَن الأنبياءِ المُتقدِّمينَ، وأنَّ النَّاسَ تَداوَلُوهُ بينَهم، وتَوارَثُوهُ قَرناً بعدَ قَرنٍ؛ وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ النُّبُوَّاتِ المُتقدِّمَةَ[1] جاءتْ بهذَا الكلامِ، وأنَّه اشتهرَ بينَ النَّاسِ؛ حتَّىٰ وصلَ إلَىٰ أوَّلِ هذِهِ الأُمَّةِ.



• وقولُه ﷺ: «إذَا لَم تَسْتَحْيِ؛ فاصْنَعْ مَا شِئْتَ»؛ في معناهُ قولانِ:

أَحدُهما: أنَّه ليسَ بمعنَىٰ الأمرِ؛ ولكنَّه علَىٰ معنَىٰ الذَّمِّ والنَّهْيِ عنهُ. وأهلُ هذِهِ المقالةِ لَهم طَرِيقانِ:

---

(١) النبوات والتنبؤات مصطلح شرعي لا يقع إلا علىٰ خبر السماء، ويخطئ كثير من العامة وبعض الخاصة من إطلاقه رديفاً للتخرُّصات والتوقعات فيقولون: «تنبأ فلان بكذا»، وهذا غلط، بل يقول: «توقع فلان كذا» ونحو ذلك. (الشيخ عبد العزيز الطريفي).

١ ـ أنَّه بمعنَىٰ التَّهديدِ؛ والمعنَىٰ: إذَا لَم يكنْ لكَ حياءٌ؛ فاعملْ مَا شِئتَ؛ فإنَّ اللهَ يجازيك عليهِ؛ كقولِهِ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ [فصلت]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥]. وهذَا اختيارُ جماعةٍ؛ مِنهم: أَبو العبَّاسِ ثعلبُ.

٢ ـ أنَّه أمرٌ، ومعناهُ الخبرُ؛ والمعنَىٰ: أنَّ مَن لَم يَسْتَحْيِ؛ صنعَ مَا شاءَ؛ فإنَّ المانعَ مِن فعلِ القبائحِ هُوَ الحياءُ، فمَن لَم يكنْ لهُ حياءٌ؛ انهمكَ في كلِّ فحشاءَ ومنكرٍ. وهذَا اختيارُ أَبي عُبيدٍ القاسمِ بنِ سلَامٍ رَحِمَهُ اللهُ، وابنِ قُتيبةَ، ومحمَّدِ بنِ نصرٍ المروزيِّ، وغيرِهم، ورَوَىٰ أبو داودَ عَنِ الإمامِ أحمدَ مَا يدلُّ علَىٰ مِثْلِ هذَا القَولِ.

القولُ الثَّاني: أنَّه أمرٌ بفعلِ مَا يشاءُ علَىٰ ظاهرِ لفظِهِ؛ وأنَّ المعنَىٰ: إذَا كانَ الَّذِي تريدُ فعلَهُ مِمَّا لَا يُستَحْىٰ مِن فعلِهِ ـ لَا مِن اللهِ، ولَا مِن النَّاسِ ـ؛ فاصنَعْ مِنهُ ـ حينَئذٍ ـ مَا شئتَ.

وقدْ جعلَ النَّبيُّ ﷺ الحياءَ مِن الإيمانِ؛ كمَا في «الصَّحيحينِ»، عن ابنِ عُمَرَ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ علَىٰ رَجُلٍ، وهُوَ يعاتبُ أخاهُ في الحياءِ، يقولُ: إنَّك لتستَحْيي؛ كأنَّه يقولُ: قدْ أضرَّ بكَ؛ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهُ؛ فإنَّ الحياءَ مِن الإيمانِ**»[(١)].

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن عِمرانَ بنِ حُصينٍ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**الحياءُ لَا يأتِي إلَّا بخيرٍ**»، وفي روايةٍ لمُسلِمٍ: «**الحياءُ خيرٌ كلُّهُ**»[(٢)].



واعْلَمْ أنَّ الحياءَ نَوعانِ:

أَحدُهما: مَا كانَ خُلُقاً وجِبلَّةً غيرَ مُكتسَبٍ؛ وهُوَ مِن أجلِّ الأخلاقِ الَّتِي يمنحُها اللهُ العبدَ.

---

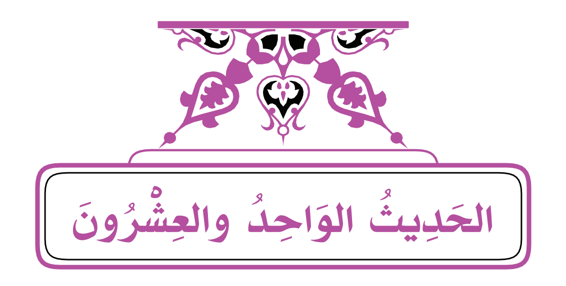
(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٤)؛ ومُسلِمٌ (٣٦).
(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٦١١٧)؛ ومُسلِمٌ (٣٣).

والثَّاني: مَا كانَ مكتسباً مِن معرفةِ اللهِ، ومعرفةِ عظمتِهِ، وقُربِهِ مِن عبادِهِ واطِّلاعِهِ عليهِم؛ فهذَا مِن أعلَىٰ خصالِ الإيمانِ؛ بلْ هُوَ مِن أعلَىٰ درجاتِ الإحسانِ.

وقدْ يتولَّدُ الحياءُ مِن اللهِ مِن مطالعةِ نِعَمِهِ، ورؤيةِ التَّقصيرِ في شُكْرِهَا.

فإذَا سُلِبَ العبدُ الحياءَ المُكتسبَ والغَريزيَّ؛ لَم يبقَ لهُ مَا يمنعُهُ مِن ارتكابِ القبيحِ؛ فصارَ كأنَّه لَا إيمانَ لهُ! واللهُ أَعْلَمُ.





الحَدِيثُ الوَاحِدُ والعِشْرُونَ

عن سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ:
يَا رَسُولَ اللهِ؛ قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلاً؛ لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً غَيْرَكَ؟
قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ».
رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشَّرح

قولُ سُفيانَ: «قُلْ لِي في الإسلامِ قولاً؛ لَا أسألُ عنهُ أحداً غيرَكَ»:

طَلَب مِنهُ ﷺ أن يُعلِّمَهُ كلاماً جامعاً لأمرِ الإسلام، كافياً حتَّىٰ لَا يحتاجَ بعدَه إلَىٰ غيرِهِ؛ فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ: «قُلْ: آمنتُ باللهِ، ثُمَّ استَقِم»، وفي الرِّوايةِ الأُخرَىٰ: «قل: ربِّيَ اللهُ، ثُمَّ استقِم»؛ وهذَا مُنتَزَعٌ مِن قولِهِ جَلَّ جَلَالُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]؛ قالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ - في تفسيرِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ - قالَ: «لَم يُشرِكُوا باللهِ شيئاً»، وعنهُ قالَ: «لَم يلتفتُوا إلَىٰ إلَهٍ غيرِهِ»، وعنهُ قالَ: «ثُمَّ استقامُوا علَىٰ أنَّ اللهَ ربُّهم»[(١)].

ولعلَّ مَن قالَ إنَّ المرادَ: الاستقامةُ علَىٰ التَّوحيدِ؛ إنَّما أرادَ: التَّوحيدَ الكاملَ؛ الَّذِي يحرِّمُ صاحبَهُ علَىٰ النَّارِ؛ وهُوَ: تحقيقُ معنَىٰ (لَا إلَهَ إلَّا اللهُ)؛

---

(١) بالاستقامة يأمن العبد عوارض المنية، فيكون مستعداً لها كل حين، فإن العبد لا يدري متىٰ تقوم قيامته. (الشيخ عبد العزيز الطريفي).

فإنَّ (الإلَه) هُوَ: الَّذِي يطاعُ فلَا يُعصَى؛ خشيةً، وإجلالاً، ومهابةً، ومحبَّةً، ورجاءً، وتوكُّلاً، ودُعَاءً؛ والمعاصِي كلُّها قادحةٌ في التَّوحيدِ؛ لأنَّها إجابةٌ لدَاعِي الهوَىٰ ـ وهُوَ: الشَّيطانُ ـ؛ قالَ ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ قالَ الحسنُ وغيرُه: «هُوَ الَّذِي لَا يهوَىٰ شيئاً إلَّا رَكِبَهُ»؛ فهذَا يُنافِي الاستقامةَ علَىٰ التَّوحيدِ.

أمَّا علَىٰ روايةَ: «قُلْ: آمنتُ باللهِ»؛ فالمَعْنَىٰ أظهرُ؛ لأنَّ الإيمانَ يدخلُ فيهِ الأعمالُ الصَّالحةُ ـ عِندَ السَّلَفِ، ومَن تابَعَهم مِن أهلِ الحديثِ ـ.

وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾ [هود]؛ فأمرَهُ أن يستقيمَ هُوَ ومَن تابَ معهُ، وأن لَا يُجاوِزُوا مَا أُمِرُوا بهِ ـ وهُوَ: الطُّغيانُ ـ، وأخبرَ أنَّه بصيرٌ بأعمالِهم، ومطَّلِعٌ عليهَا.

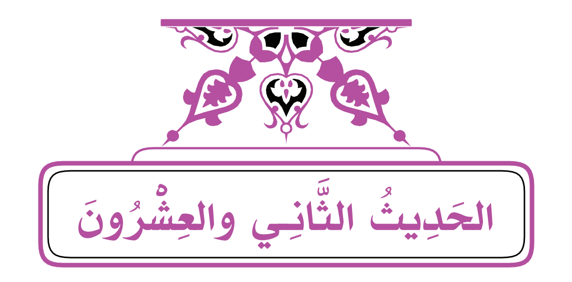
ذكرَ القُشيريُّ وغيرُه، عَن بعضِهم، أنَّه رَأَىٰ النَّبيَّ ﷺ؛ فقالَ لهُ: قلتَ يَا رَسُولَ اللهِ: «**شَيَّبتنِي (هودٌ) وأَخواتُها**»[1]؛ فمَا شَيَّبَكَ مِنها؟ قالَ: «**قولُه**: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾».

و(الاستقامةُ): هِيَ سلوكُ الصِّراطِ المُستقيمِ؛ وهُوَ الدِّينُ القيِّمُ، مِن غَيرِ تعريجٍ عَنهُ ـ يَمنةً ولَا يَسرَةً ـ.

ويشملُ ذلكَ: فعلَ الطَّاعاتِ كلِّها؛ الظَّاهرةِ والباطنةِ، وتركَ المَنهيَّاتِ كلِّها كذلكَ؛ فصارَتْ هذِهِ الوصيَّةُ جامعةً لخصالِ الدِّين كلِّها.

* * *

(١) حديثُ: «**شَيَّبتنِي هود، والواقعة، والمرسلات**، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾».
أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٣٢٩٧)؛ والحاكِمُ (٢/ ٤٧٦) وقالَ: «صحيحٌ علَىٰ شرط البُخَارِيِّ».
وأمَّا هذِهِ الرُّؤْيَا؛ فقدْ ذكرَهَا السُّيوطيُّ في «الدُّرّ» ـ في تفسيرِ سُورةِ (هود) ـ، ونسبَهَا إلَىٰ البيهقيِّ في «شُعَب الإيمانِ»، ولَا فائدةَ في إيرادِها ـ فيمَا أرَىٰ ـ؛ إذْ لَا تفيدُ عِلماً ولا ظنًّا. واللهُ أعلَمُ.



الحَدِيثُ الثَّانِـي والعِشْرُونَ

عن جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

أنَّ رَجُلاً سَألَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ المَكْتُوبَاتِ، وصُمْتُ رَمَضَانَ، وأَحْلَلْتُ الحَلَالَ، وحَرَّمْتُ الحَرَامُ، ولَم أَزِدْ علَىٰ ذَلِكَ شَيْئاً؛ أَأَدْخُلُ الجنَّةَ؟

قَالَ: «نَعَمْ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشَّرْح

هذَا الحديثُ خرَّجَهُ مُسلِمٌ، مِن روايةِ: أَبي الزُّبيرِ، عَن جابرٍ، وزادَ في آخرِهِ: «واللهِ؛ لَا أزيدُ علَىٰ ذلكَ شيئاً».



وقدْ فسَّرَ بعضُهم (تحليلَ الحلالِ): باعتقادِ حِلِّهِ، و(تحريمَ الحرامِ): باعتقادِ حُرْمَتِهِ معَ اجتنابِهِ.

ويُحتَمل أَن يرادَ بـ(تحليلِ الحلالِ): إتيانُهُ؛ ويكونَ الحلالُ هَاهُنا عبارةً عمَّا ليسَ بحرامٍ؛ فيدخلُ فيهِ: الواجبُ، والمستحبُّ، والمباحُ؛ ويكون المعنَىٰ: أنَّه يفعلُ مَا ليسَ بمُحرَّمٍ عليهِ، ولا يتعدَّىٰ مَا أُبيحَ لهُ إلَىٰ غيرِهِ، ويجتنبُ المحرَّماتِ.

ويُقالُ في الأمثالِ: «فلانٌ لَا يحلِّلُ ولا يحرِّمُ»؛ إذَا كانَ لا يمتنعُ مِن

فعلِ حرامٍ، ولا يقفُ عندَ مَا أُبيحَ لهُ؛ وإنْ كانَ يعتقدُ تحريمَ الحرامِ؛ فيجعلونَ مَن فعلَ الحرامَ ولَا يتحاشَىٰ مِنه محلِّلاً لهُ، وإنْ كانَ لا يعتقدُ حِلَّهُ.

وبكلِّ حالٍ؛ فهذَا الحديثُ يدلُّ علَىٰ أنَّ مَن قامَ بالواجباتِ، وانتهَىٰ عَن المحرَّماتِ؛ دخلَ الجنَّةَ.

وقد تواترتِ الأحاديثُ عَن النَّبيِّ ﷺ بهذَا المعنَىٰ، أَو مَا هُوَ قريبٌ مِنهُ؛ كمَا خرَّجَهُ النَّسائيُّ، وابنُ حِبَّانَ، والحاكمُ، مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ وأبي سعيدٍ، عَن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**مَا مِن عبدٍ يصلِّي الصَّلَواتِ الخمسَ، ويصومُ رمضانَ، ويُخرجُ الزَّكاةَ، ويجتنبُ الكبائرَ السَّبعَ؛ إلَّا فُتِحَتْ لهُ أبوابُ الجنَّةِ؛ يدخلُ مِن أيِّها شاءَ**»؛ ثُمَّ تلَا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١][١].

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن أبي هُرَيرةَ، أنَّ أعرابيّاً قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ دُلَّنِي علَىٰ عملٍ إذَا عملتُه؛ دخلتُ الجنَّةَ؛ قالَ: «**تعبدُ اللهَ؛ لَا تشركُ بِهِ شيئاً، وتقيمُ الصَّلاةَ المكتوبةَ، وتؤدِّي الزَّكاةَ المفروضةَ، وتصومُ رمضانَ**»؛ قالَ: وَالَّذِي بعثكَ بالحقِّ؛ لَا أزيدُ علَىٰ هذَا شيئاً، ولَا أنقصُ منهُ! فلمَّا ولَّىٰ؛ قالَ النَّبي ﷺ: «**مَن سرَّهُ أَن ينظرَ إلَىٰ رَجُلٍ مِن أهلِ الجنَّةِ؛ فلينظُرْ إلَىٰ هذَا**»[٢].

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن طلحةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ، أنَّ أعرابيّاً جاءَ إلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثائرَ الرَّأسِ؛ فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أخبرنِي ماذَا فرضَ اللهُ عليَّ مِن الصَّلاةِ؟ فقالَ: «**الصَّلواتُ الخمسُ، إلَّا أنْ تطوَّعَ شَيئاً**»؛ فقالَ: أخبرنِي بمَا فرضَ اللهُ عليَّ مِن الصِّيامِ؛ فقالَ: «**شهرُ رمضانَ، إلَّا أنْ تطوَّعَ شَيئاً**»؛ فقالَ: أخبرنِي بمَا فرضَ اللهُ عليَّ مِن الزَّكاةِ؛ فأخبرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بشرائعِ الإسلامِ؛ فقالَ: وَالَّذِي أكرمكَ بالحقِّ؛ لَا أتطوَّعُ شيئاً، ولَا أنقصُ ممَّا فرضَ اللهُ عليَّ

(١) أخرجَهُ النَّسائيُّ (٢٤٣٨)؛ وابنُ حِبَّانَ (١٧٤٨)؛ والحاكِمُ (١/ ٢٠٠) ـ وصحَّحَه ـ، لكن ضعَّفَه الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «ضعيف التَّرغيبِ والتَّرهيبِ» (٤٥٢).
(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (١٣٩٧)؛ ومُسلِمٌ (١٤).

شَيئاً! فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْلَحَ؛ إنْ صَدَقَ**»، أو: «**دَخَلَ الجنَّةَ؛ إنْ صَدَقَ**»[(١)].

ومُرادُ الأعرابيِّ: أنَّه لَا يزيدُ علَىٰ الصَّلاةِ المكتوبةِ، والزَّكاةِ المفروضةِ، وصيامِ رمضانَ، وحَجِّ البيتِ شَيئاً مِن التَّطوُّعِ، ليسَ أنَّه لَا يعملُ بشيْءٍ مِن شرائعِ الإسلامِ وواجباتِهِ غيرَ ذلكَ.

وهذِهِ الأحاديثُ لم يُذكَرْ فِيها اجتنابُ المحرَّماتِ؛ لأنَّ السَّائلَ إنَّما سألَهُ عَن الأعمالِ الَّتِي يدخلُ بِهَا عامِلُها الجنَّةَ.

فهذِهِ الأعمالُ أسبابُ مُقتضيَةٌ لدخولِ الجنَّةِ، وقدْ يكونُ ارتكابُ المحرَّماتِ موانِعَ؛ ويدلُّ علَىٰ هذَا: مَا أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ، مِن حديثِ عمرِو بنِ مرَّةَ الجهنيِّ، قالَ: جاءَ رَجُلٌ إلَىٰ النَّبيِّ ﷺ؛ فقالَ: يَا رَسُول اللهِ؛ شهدتُ أَلَّا إلٰهَ إلَّا اللهُ، وأنَّكَ رَسُولُ اللهِ، وصليتُ الخمسَ، وأديتُ زكاةَ مالِي، وصمتُ شهرَ رمضانَ؛ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن ماتَ علَىٰ هذَا؛ كانَ معَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، يومَ القيامةِ** - ونصبَ أُصبعيهِ - **مَا لَم يَعُقَّ والِدَيْهِ**»[(٢)].

وقدْ وردَ ترتُّبُ دخولِ الجنَّةِ علَىٰ فعلِ بعضِ الأعمالِ كالصَّلاةِ؛ ففي الحديثِ الصَّحيحِ: «**مَن صلَّىٰ البَرْدَيْنِ؛ دخلَ الجنَّةَ**»[(٣)].

وهذَا كلُّهُ مِن ذكرِ السَّببِ المقتَضِي؛ الَّذِي لا يعملُ عملُهُ إلَّا باستجماعِ شُروطِهِ، وانتفاءِ موانِعِهِ؛ ويدلُّ علَىٰ هذَا: مَا خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ، عَن بشيرِ بنِ الخصاصيةِ، قالَ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ لأُبايعَهُ؛ فَشَرَط عليَّ: شهادةَ أَلَّا إلٰهَ إلَّا اللهُ،

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٤٦)؛ ومُسلِمٌ (١١).

(٢) لَمْ أَرَه فِي «المُسنَدِ» المَطبُوع.
والحديثُ أخرجَهُ ابنُ حِبَّانَ (٣٤٣٨)؛ وذكرَهُ الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ٤٦)، وقالَ: «رواهُ البزَّارُ، ورجالُهُ رجالُ الصَّحيحِ، خلَا شيخَي البزَّارِ، وأرجُو إسنادهُ أنَّه إسنادٌ حَسَنٌ أَو صحيحٌ».

(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٤٧)؛ ومُسلِمٌ (٦٣٥). و(البُرْدانِ): الفَجْرُ والعَصْرُ.

وأنَّ محمَّداً عبدُهُ ورَسُولُهُ، وأَن أُقِيمَ الصَّلاةَ، وأَن أُوتيَ الزَّكاةَ، وأَن أَحُجَّ حَجَّةَ الإسلامِ، وأَن أَصُومَ رَمضانَ، وأَن أُجاهِدَ في سبيلِ اللهِ؛ فقلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَمَّا اثنتانِ؛ فوَاللهِ؛ مَا أطيقُهما: الجهادُ والصَّدقةُ! فقبضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يدَهُ، ثُمَّ حركَهَا؛ وقالَ: «**فلَا جِهادَ ولَا صدقةَ؛ فبِمَ تدخلُ الجنَّةَ؛ إذاً؟!**»؛ قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أنَا أُبايعُكَ؛ فبايعتُهُ عليهنَّ كلِّهنَّ(١).

ففي هذَا الحديثِ: أنَّه لَا يكفِي في دخولِ الجنَّةِ هذِهِ الخصالُ، بدونِ الزَّكاةِ والجهادِ.

وقدْ ثبتَ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ: أنَّ ارتكابَ بعضِ الكبائرِ يمنعُ دخولَ الجنَّةِ؛ كقولِهِ ﷺ: «**لَا يدخلُ الجنَّةَ قاطعٌ**»(٢)، «**لَا يدخلُ الجنَّةَ مَن كانَ في قلبِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**»(٣).

وقالَ بعضُ السَّلَفِ: «إنَّ الرَّجلَ ليُحْبَسُ عَن بابِ الجنَّةِ مِئَةَ عامٍ؛ بالذَّنبِ كانَ يعملُهُ في الدُّنيَا»!

فهذِهِ كلُّها موانعُ.

ومِن هُنَا؛ يظهرُ معنَىٰ الأحاديثِ الَّتِي جاءتْ في ترتيبِ دخولِ الجنَّةِ علَىٰ مجرَّدِ التَّوحيدِ، وفي هذَا المعنَىٰ أحاديثُ كثيرةٌ جدّاً؛ فقالَ طائفةٌ مِن العلماءِ: إنَّ كلمةَ التَّوحيدِ سببٌ مُقتَضِي لدخولِ الجنَّةِ، وللنَّجاةِ من النَّار، لكنَّ لَهُ شروطاً؛ وهِيَ: الإتيانُ بالفرائضِ، وموانعَ؛ وهِيَ: إتيانُ الكبائرِ.

قالَ الحسنُ: «هذَا العمودُ؛ فأين الطُّنُبُ؟»؛ يَعنِي: أنَّ كلمةَ التَّوحيدِ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٤)؛ ورجالُهُ ثقاتٌ، غير أبي المثنىٰ العبديِّ ـ واسمهُ: مؤثر بنُ عفازةَ الشَّيبانيِّ ـ؛ قالَ العجليُّ: «ثقةٌ، مِن أصحابِ عَبْدِ اللهِ ـ يَعنِي: ابنَ مسعودٍ ـ»، وقالَ الحافظُ في «التَّقريب»: «مقبول».

أقولُ: فلعلَّ الحديثُ ـ بذلكَ ـ جيِّدُ الإسنادِ. واللهُ ـ تعالَىٰ ـ أعلَمُ.

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٩٨٤)؛ ومُسلِمٌ (٢٥٥٦).

(٣) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٩١).

عمودُ الفُسطاطِ[١]، ولكنْ؛ لَا يثبتُ الفُسطاطُ بدونِ أَطنابِهِ؛ وهِيَ: فعلُ الواجباتِ، وتركُ المحرَّماتِ.

وقيلَ لوهْبِ بنِ مُنبِّهٍ: أليسَ (لَا إلٰهَ إلَّا اللهُ) مِفتاحَ الجنَّةِ؟ قالَ: «بلَىٰ، ولكنْ؛ مَا مِن مِفتاحٍ إلَّا ولهُ أسنانٌ! فإنْ جئتَ بمِفتاحٍ لهُ أسنانٌ؛ فُتِحَ لكَ؛ وإلَّا؛ لَم يُفْتَحْ لكَ!».

وقالَ طائفةٌ: كانَ هذَا قبلَ الفرائضِ والحُدُودِ؛ وقالَ الثَّورِيُّ: «نسختْهَا الفرائضُ والحدودُ».

وقالتْ طائفةٌ: هذِهِ النُّصوصُ جاءتْ مُقَيَّدَةً بمَن يقولُها بصِدْقٍ وإخلاصٍ؛ وإخلاصُها يمنعُ الإصرارَ علَىٰ المعصيَةِ؛ وجاءَ مِن مراسيلِ الحسنِ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَن قالَ (لا إلٰهَ إلَّا اللهُ)، مخلِصاً؛ دخلَ الجنَّةَ**»؛ قيلَ: ومَا إخلاصُها؟ قالَ: «**أَن تحجزَكَ عمَّا حَرَّمَ اللهُ**»، ورُوِيَ ذلكَ مُسْنداً مِن وجوهٍ أُخَرَ ضعيفةٍ.

فتبيَّنَ معنَىٰ قولِهِ ﷺ: «**مَن شَهِدَ أَن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، صادِقاً مِن قلبِهِ؛ حَرَّمَهُ اللهُ علَىٰ النَّارِ**»[٢]؛ وأنَّ مَن دخلَ النَّارَ مِن أهلِ هذِهِ الكلمةِ؛ فلِقِلَّةِ صِدْقِهِ في قولِها؛ فإنَّ هذِهِ الكلمةَ إذَا صدقتْ؛ طهَّرتِ القلبَ مِن كلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ؛ فمَن صدقَ في قولِهِ: (لَا إلٰهَ إلَّا اللهُ)؛ لَم يُحِبَّ سِوَاهُ، ولَم يَرْجُ إلَّا إيَّاهُ، ولَم يخشَ أحداً إلَّا اللهَ، ولَم يتوكَّلْ إلَّا علَىٰ اللهِ، ولَم تبقَ لهُ بقيَّةٌ مِن آثارِ نفسِهِ وهواهُ، ومتَىٰ بَقِيَ في القلبِ أثرٌ لسِوَىٰ اللهِ؛ فمِن قِلَّةِ الصِّدْقِ في قولِها.

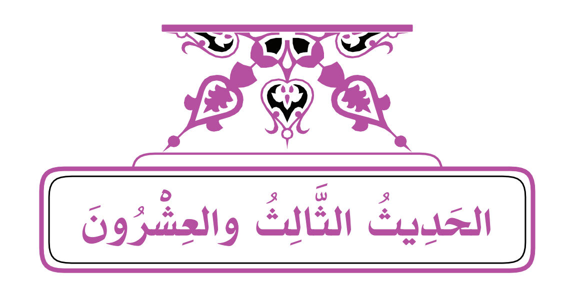
ويشهدُ لهذَا المعنَىٰ حديثُ مُعاذٍ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**مَن كانَ آخرُ كلامِهِ مِن الدُّنيَا: (لَا إلٰهَ إلَّا اللهُ)؛ دخلَ الجنَّةَ**»[٣]؛ فإنَّ المحتَضَرَ لا يكادُ يقولُها إلَّا بإخلاصٍ، وتوبةٍ، وندمٍ علَىٰ مَا مضَىٰ، وعزمٍ علَىٰ أَن لَا يعودَ إلَىٰ مِثْلِهِ.

---

(١) الفسطاط: الخيمة.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨)؛ ومسلم (١٣٢).

(٣) أخرجَهُ أحمدُ (٥/ ٢٣٣)؛ وأبو داودَ (٣١١٦)؛ وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (٦٤٧٩).



الحَدِيثُ الثَّالِثُ والعِشْرُونَ

عن أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، و(الحَمْدُ للهِ) تَملأُ المِيزَانَ، و(سُبْحَانَ اللهِ) و(الحَمْدُ للهِ) تَمْلآنِ ـ أَو تَمْلأُ ـ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، والصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، والصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فبَائِعٌ نَفْسَهُ فمُعْتِقُهَا، أَو مُوبِقُهَا».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشَّرح

• قولُه ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ»:

فسَّرَ بعضُهم (الطُّهُورَ) هَاهُنا بـ: تَركِ الذُّنوبِ؛ كمَا في قولِهِ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

والصَّحيحُ الَّذِي عليهِ الأكثرونَ: أنَّ المرادَ بـ(الطُّهُورِ) هَاهُنا: التَّطَهُّرُ بالماءِ مِن الأحداثِ؛ ولذَا بدأَ مُسلِمٌ[1] في تخريجِهِ في أبوابِ الوضوءِ، وكذلكَ خرَّجَهُ النَّسائيُّ وابنُ ماجَه، وغيرُهما.

وعلَىٰ هذَا؛ فاختلفَ النَّاسُ في معنَىٰ كَونِ الطُّهُورِ بالماءِ شَطْرَ الإيمانِ.

قلتُ: كُلُّ شيْءٍ كانَ تحتَهُ نَوعانِ؛ فأحدُهما نِصفٌ لهُ، وسواءٌ كانَ عددَ النَّوعَينِ علَىٰ السِّواءِ، أَو أحدُهما أزيدَ مِن الآخرِ؛ ويدلُّ علَىٰ هذَا حديثُ:

(١) يَعنِي: الإمامَ مُسلِمَ بنَ الحجَّاجِ، صاحبَ «الصَّحيحَ» رحمه الله.

«**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بينِي وبينَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**»[1]؛ والمرادُ: قراءةُ الصَّلاةِ؛ ولهذَا فسَّرَها بـ(الفاتِحةِ)؛ والمرادُ: أنَّها مقسومةٌ للعبادَةِ والمسألَةِ؛ فالعبادةُ حَقُّ الرَّبِّ، والمسألةُ حَقُّ العبدِ، وليسَ المرادُ قسمةَ كلماتِهَا علَىٰ السَّواءِ.

وقدْ ذكرَ هذَا الخطَّابيُّ رَحِمَهُ اللهُ؛ واستشهدَ بقولِ العربِ: «نصفُ السَّنَةِ سَفَرٌ، ونصفُها حَضَرٌ»؛ قالَ: «وليسَ علَىٰ تَساوِي الزَّمانَيْنِ فِيهما؛ لكنْ علَىٰ انقسامِ الزَّمانَيْنِ لَهما، وإنْ تفاوتتْ مُدَّتاهُما»، وبقولِ شريحٍ، وقيلَ لهُ: كيفَ أصبحتَ؟، قالَ: «أصبحتُ؛ ونِصْفُ النَّاسِ عليَّ غضبانُ»! يريدُ: أنَّ النَّاسَ بينَ محكومٍ لهُ ومحكومٍ عليهِ؛ فالمحكومُ عليهِ غضبانُ، والمحكومُ لهُ راضٍ عنهُ؛ فهمَا حزبانِ مختلفانِ.

ويقولُ الشَّاعرُ:

إذَا مِتُّ كانَ النَّاسُ نصفينِ: شامِتٌ … بمَوتِي ومُثْنٍ بالَّذِي كنتُ أفعلُ

ومُرادُه: أنَّهم ينقسمونَ قِسمَيْن.



• وقولُه ﷺ: «**(الحَمْدُ للهِ) تَملأُ المِيزَانَ، و(سُبْحَانَ اللهِ) و(الحَمْدُ للهِ) تَمْلآنِ ـ أَو تَمْلأُ ـ مَا بَيْنَ السَّماواتِ والأَرْضِ**»:

هذَا شَكٌّ مِن الرَّاوِي.

وفي رِوايَةِ النَّسائيِّ وابنِ ماجَه: «**التَّسبيحُ والتَّكبيرُ مِلْءُ السَّماواتِ والأرضِ**»، وخَرَّجَ الفريابيُّ: «**كلمتانِ؛ إحداهُما مَن قالَها لَم يكنْ لَها ناهيةٌ دونَ العَرْشِ، والأُخرَىٰ تملأُ مَا بينَ السَّماءِ والأرضِ: (لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ)، و(اللهُ أكبرُ)**».

فقد تضمَّنتْ هذِهِ الأحاديثُ فضلَ هذِهِ الكلماتِ الأربعِ؛ الَّتِي هِيَ أفضلُ

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٣٩٥).

الكلامِ؛ وهِيَ: (سُبحانَ اللهِ)، و(الحمدُ للهِ)، و(لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ)، و(اللهُ أكبرُ).

فأمَّا (الحمدُ للهِ)؛ فاتَّفقتِ الأحاديثُ كلُّها علَىٰ أنَّه يملأُ الميزانَ، وأمَّا (سُبحانَ اللهِ)؛ ففِي رِوايةِ مُسلِم: «**(سُبحانَ اللهِ) و(الحَمْدُ للهِ) تَملآنِ ـ أَو تملأُ ـ مَا بينَ السَّماءِ والأرضِ**»؛ فشَكَّ الرَّاوِي في الَّذِي يملأُ مَا بينَ السَّماءِ والأرضِ: هَل هُوَ الكلمتانِ، أَو إِحدَاهُما؟

وبكلِّ حالٍ؛ فالتَّسبيحُ دونَ التَّحميدِ في الفَضْلِ؛ كمَا جاءَ صريحاً في حديثِ عليٍّ، وأبي هُرَيرةَ، وعَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ، والرَّجلِ مِن بَنِي سُلَيْمٍ: أنَّ «**التَّسبيح نِصْفُ الميزانِ، و(الحَمْدُ للهِ) تملؤُهُ**»[(١)].

وسببُ ذَلِكَ: أنَّ التَّحميدَ إثباتُ المحامِدِ كلِّها للهِ؛ فدخلَ في ذلكَ: إثباتُ صفاتِ الكمالِ ونُعُوتِ الجلالِ كلِّها، والتَّسبيحُ هُوَ تنزيهُ اللهِ عَن النَّقائصِ والعُيُوبِ والآفاتِ، والإثباتُ أكملُ مِن السَّلْبِ؛ ولهذَا؛ لَم يَرِدِ التَّسبيحُ مجرَّداً؛ لكنْ مقروناً بمَا يدلُّ علَىٰ إثباتِ الكمالِ: فتارَةً؛ يُقرَنُ بالحمدِ؛ كقولِ: «سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِهِ»، و«سُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ»، وتارَةً؛ باسمٍ مِن الأسماءِ الدَّالَّةِ علَىٰ العظمةِ والجلالِ؛ كقولِهِ: «سُبحانَ اللهِ العظيم».

فإنْ كانَ حديثُ أَبي مالكٍ يدلُّ علَىٰ أنَّ الَّذِي يملأُ مَا بينَ السَّماءِ والأرضِ هُوَ مجموعُ التَّسبيحِ والتَّكبيرِ؛ فالأمرُ ظاهرٌ، وإنْ كانَ المرادُ أنَّ كلّاً مِنهما يملأُ ذلكَ؛ فإنَّ الميزانَ أوسعُ ممَّا بينَ السَّماءِ والأرضِ؛ فمَا يملأُ الميزانَ هُوَ أكبرُ ممَّا يملأُ مَا بينَ السَّماءِ والأرضِ؛ ويدلُّ عليهِ: أنَّه صحَّ عَن سلمانَ رضي الله عنه، أنَّه قالَ: «**يُوضَعُ الميزانُ يومَ القيامةِ؛ فلَو وُزِنَ فيهِ السَّماواتُ والأرضُ؛ لوَسِعَتْ...**»! وخَرَّجَهُ الحاكمُ مرفوعاً ـ وصَحَّحَهُ ـ، ولكنَّ الموقوفَ هُوَ المشهورُ[(٢)].

---

(١) ولهذا كانت الفاتحة تبدأ في كل ركعة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولا صلاة لمن لم يقرأ بها. (الشيخ عبد العزيز الطريفي).

(٢) أخرجهُ الحاكمُ (٤/٥٨٦)، وقدْ حكمَ عليهِ المؤلِّفُ ـ كمَا ترَىٰ ـ.

وقدِ اختُلِفَ في أيِّ الكلمتَيْنِ أفضلُ: أكلمةُ (الحمدِ)، أَم كلمةُ (التَّهليلِ)؟ حكَىٰ هذَا الاختلافَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ وغيرُه، وقالَ النَّخعيُّ: «كانُوا يَرَونَ أنَّ الحمدَ أكثرُ الكلامِ تضعيفاً»، وقالَ الثَّوريُّ: «ليسَ يُضاعَفُ مِن الكلامِ مِثْلُ الحَمْدِ».

و(الحَمْدُ) يتضمَّنُ إثباتَ جميعِ أنواعِ الكمالِ للهِ؛ فيدخلُ فيهِ التَّوحيدُ.



• قولُه ﷺ: «**الصَّلاةُ نورٌ، والصَّدَقَةُ برهانٌ، والصَّبرُ ضِياءٌ**»:

هذِهِ الأنواعُ الثَّلاثةُ مِن الأعمالِ أنوارٌ كلُّها، لكنَّ مِنها مَا يختصُّ بنوعٍ مِن أنواعِ النُّورِ:

فالصَّلاةُ: نورٌ مُطْلَقٌ؛ فهِيَ نورٌ للمؤمنينَ في قُلوبِهم وبصائِرِهم؛ ولهذَا؛ كانتْ قُرَّةَ عينِ المتَّقينَ؛ كمَا كانَ النَّبيُّ ﷺ يقولُ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي في الصَّلاةِ**»؛ خَرَّجَهُ أحمدُ والنَّسائيُّ[1]، وهِيَ نورٌ للمؤمنينَ في قبورِهم، ولَا سيَّما صلاةُ اللَّيلِ؛ كمَا قالَ أبو الدَّرداءِ: «صَلُّوا ركعتَيْنِ في ظُلَمِ اللَّيلِ لظُلمَةِ القُبُورِ»، وهِيَ في الآخرَةِ نورٌ للمؤمنينَ في ظُلُماتِ القيامَةِ وعلَىٰ الصِّرَاطِ؛ وفي «المُسند» و«صحيح ابنِ حِبَّانَ»، عَن عَبْدِ اللهِ بنِ عمرٍو، عَن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه ذكرَ الصَّلاةَ؛ فقالَ: «**مَن حافظَ عليهَا؛ كانتْ لَهُ نُوراً وبُرْهاناً ونجاةً يومَ القيامةِ، ومَن لَم يحافظْ عليهَا؛ لَم يكنْ لهُ نورٌ ولَا نجاةٌ ولَا برهانٌ**»[2][3].

وأمَّا الصَّدَقَةُ: فهِيَ برهانٌ؛ و(البرهانُ): هُوَ الشُّعاعُ الَّذي يَلِي وجهَ

---

(١) أخرجَهُ أحمدُ (٣/ ١٢٨)؛ وصحَّحَه الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صحيحِ الجامعِ» (٣١٢٤).

(٢) أخرجَهُ أحمدُ (٢/ ١٦٩)؛ وابنِ حِبَّانَ (١٤٦٧)، وذكرَهُ المنذريُّ في «التَّرغيب والتَّرهيب»؛ وقالَ: «أخرجَهُ أحمدُ، بإسنادٍ جيِّدٍ»، وسمعتُ سماحةَ الشَّيخِ المحدِّث عَبْدَ العزيزِ بنَ عَبْدِ اللهِ بنِ بازٍ رَحِمَهُ اللهُ كثيراً يجوِّدُ إسنادَهُ.

(٣) تقدم بيان فضل الصلاة وأهميتها وخطر تركها في أول الكتاب (ص٢٩).

الشَّمسِ؛ ومِنهُ: سُمِّيتِ (الحُجَّةُ القاطعَةُ) برهاناً؛ لوُضُوحِ دلالتِهَا علَىٰ مَا دلَّتْ عليهِ؛ فكذلكَ الصَّدَقَةُ برهانٌ علَىٰ صِحَّةِ الإيمانِ؛ وسببُ هذَا: أنَّ المالَ تحبُّه النُّفوسُ، وتبخلُ بهِ، فإذَا سمحتْ بإخراجِهِ للهِ؛ دلَّ علَىٰ صِحَّةِ إيمانِها باللهِ، ووَعْدِهِ ووَعيدِهِ.

وأمَّا الصَّبرُ: فإنَّه ضياءٌ؛ و(الضِّياءُ): هُوَ النُّورُ الَّذِي يحصلُ فيهِ نوعُ حرارةٍ وإحراقٍ؛ كضياءِ الشَّمسِ؛ بخلافِ القمرِ؛ فإنَّه نورٌ محضٌ؛ فيهِ إشراقٌ بغيرِ إحراقٍ؛ قالَ ـ تعالَىٰ ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]؛ ومِن هُنَا؛ وَصَفَ اللهُ شريعةَ مُوسَىٰ بأنَّها ضياءٌ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء]، وإنْ كانَ قدْ ذكرَ أنَّ في التَّوراةِ نوراً؛ كمَا قالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولكنَّ الغالبَ علَىٰ شريعتِهِم الضِّياءُ؛ لمَا فِيها مِن الآصارِ والأغلالِ والأثقالِ! ووَصَفَ شريعةَ محمَّدٍ ﷺ بأنَّها نورٌ؛ لمَا فِيها مِن الحَنيفيَّةِ السَّمْحَةِ: ﴿...قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة].

ولمَّا كانَ الصَّبرُ شاقّاً علَىٰ النُّفوسِ، يحتاجُ إلَىٰ مجاهدَةِ النَّفْسِ، وحَبْسِهَا وكفِّهَا عمَّا تهواهُ؛ كانَ ضياءً؛ فإنَّ الصَّبرَ في اللُّغةِ: الحَبْسُ.

والصَّبرُ المحمودُ أنواعٌ:

١ ـ صبرٌ علَىٰ طاعةِ اللهِ.

٢ ـ صبرٌ عَن معاصِي اللهِ.

٣ ـ صبرٌ علَىٰ أقدارِ اللهِ.

والصَّبرُ علَىٰ الطَّاعاتِ وعَن المحرَّماتِ؛ أفضلُ مِن الصَّبرِ علَىٰ الأقدارِ المؤلمةِ؛ صرَّحَ بذلكَ السَّلَفُ؛ مِنهُم: سعيدُ بنُ جبيرٍ؛ وميمونُ بنُ مهرانَ؛ وغيرُهما.

• قولُه ﷺ: «والقرآنُ حُجَّةٌ لك، أَو عليكَ»:

رَوَىٰ عَمرُو بنُ شُعَيْبٍ، عَن أبيهِ، عَن جَدِّهِ، عَن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**يُمثَّلُ القرآنُ يومَ القيامةِ رَجُلاً؛ فيؤتَىٰ بالرَّجُلِ قدْ حملَهُ؛ فخالَفَ أمرَهُ؛ فيتمثَّلُ لهُ خصماً؛ فيقولُ: يَا رَبِّ؛ حمَّلتَهُ إيَّايَ؛ فشرُّ حاملٍ؛ تعدَّىٰ حُدُودِي، وضيَّعَ فرائضِي، وركبَ معصيَتِي، وتركَ طاعَتِي، فمَا يزالُ يقذفُ عليهِ بالحُجَجِ؛ حتَّىٰ يُقالَ: شأنَك بهِ؛ فيأخذ بيدِهِ؛ فمَا يرسلُهُ حتَّىٰ يكبَّه علَىٰ منخرِهِ في النَّار! ويؤتَىٰ بالرَّجُلِ الصَّالِحِ قدْ حملَهُ وحَفِظَهُ؛ فيتمثَّلُ خصماً دونَه؛ فيقولُ: يَا رَبِّ؛ حمَّلتَهُ إيَّايَ؛ فخيرُ حاملٍ؛ حَفِظَ حُدُودِي، وعملَ بفرائِضِي، واجتنبَ معصيَتِي، واتَّبعَ طاعتِي، فمَا يزالُ يقذفُ لهُ بالحُجَجِ؛ حتَّىٰ يُقالَ: شأنَك بهِ؛ فيأخذ بيدِهِ؛ فمَا يرسلُهُ حتَّىٰ يلبسَهُ حلَّةَ الإستبرقِ، ويعقدَ عليهِ تاجَ الملكِ، ويسقيَهُ كأسَ الخمْرِ**»(١).

• قولُه ﷺ: «كلُّ النَّاسِ يغدُو؛ فبائعٌ نفسَهُ فمُعْتِقُها، أَو موبقُها»:

دلَّ الحديثُ علَىٰ أنَّ كلَّ إنسانٍ فهُوَ ساعٍ في هلاكِ نفسِهِ، أَو في فكاكِهَا: فمَن سَعَىٰ في طاعةِ اللهِ؛ فقدْ باعَ نفسَهُ للهِ، وأعتقَها مِن عذابِهِ، ومَن سَعَىٰ في معصيَةِ اللهِ؛ فقدْ باعَ نفسَهُ بالهوانِ؛ وأوبقَها بالآثامِ؛ الموجبَةِ لغضبِ اللهِ وعقابِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

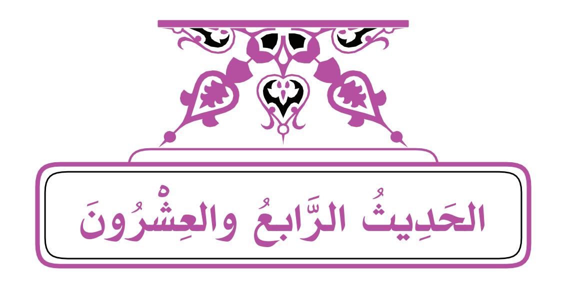
وقدِ اشترَىٰ جماعةٌ مِن السَّلَفِ أنفسَهُم مِن اللهِ بأموالِهم؛ فمِنهُم: مَن تصدَّقَ بمالِهِ كلِّه؛ كحبيبٍ أَبي محمَّدٍ، ومِنهُم: مَن تصدَّقَ بوزنِهِ فِضَّةً، ثلاثَ

(١) أخرجَهُ ابنُ أبي شيبةَ (١٠/٤٩١)، وفي سندِهِ ضعفٌ.

مرَّاتٍ أَو أربعاً؛ كخالدٍ الطَّحانِ، ومِنهُم: مَن كانَ يجتهدُ في الأعمالِ الصَّالحةِ؛ ويقولُ: «إنَّما أنَا أسيرٌ أسعَىٰ في فكاكِ رقبَتِي»! مِنهُم: عمرُو بنُ عتبةَ، وكانَ بعضُهم يسبِّحُ ـ كلَّ يومٍ ـ اثنَي عشرَ ألف تسبيحةً؛ بقدرِ دِيتِهِ؛ كأنَّه قد قتلَ نفسَهُ؛ فهُوَ يفكُّها بدِيتِهِ!

قالَ الحسنُ: «المؤمنُ في الدُّنيا كالأسيرِ؛ يسعَىٰ في فكاكِ رقبتِهِ، لا يأمنُ شيئاً؛ حتَّىٰ يلقَىٰ اللهَ ﷻ».





الحَدِيثُ الرَّابعُ والعِشْرُونَ

عن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جل جلاله، أنَّه قَالَ:

«يَا عِبَادِي؛ إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَىٰ نَفْسِي، وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحرَّماً؛ فلَا تَظَالَموا، يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ؛ يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ؛ يَا عِبَادِي؛ إنَّكُمْ تُخطِئُونَ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ، وأنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً؛ فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي؛ إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فتَضُرُّونِي، ولَن تَبْلُغُوا نَفْعِي فتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِك في مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا نَقَصَ ذَلِك مِنْ مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ؛ فسَأَلُونِي؛ فأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِك مِمَّا عِنْدِي؛ إلَّا كمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ.

يَا عِبَادِي؛ إنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ؛ أُحْصِيهَا لَكُمْ؛ ثمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا؛ فمَنْ وَجَدَ خَيْراً؛ فلْيَحْمَدِ اللهِ، ومَنْ وَجدَ غَيْرَ ذَلِك؛ فلَا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشَّرْح

هذَا الحديثُ أخرجَهُ مُسلِمٌ.

قالَ الإمامُ أحمدُ: «هُوَ أشرفُ حديثٍ لأهلِ الشَّامِ».

• فقولُه ﷺ ـ فيمَا يَرْويهِ عَن ربِّهِ ـ: **«يَا عِبَادِي؛ إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ علَىٰ نَفْسِي»**:

يَعنِي: أنَّه منعَ نفسَهُ مِن الظُّلم لعبادِهِ؛ وهُوَ ممَّا يدلُّ علَىٰ أنَّ اللهَ قادرٌ علَىٰ الظُّلمِ، ولكنَّه لا يفعلُه فَضْلاً مِنهُ وجُوداً[١].



• وقولُه ﷺ: **«وجعلتُه بينَكُم محرَّماً؛ فلَا تظالَموا»**:

الظُّلمُ نَوعانِ:

أَحدُهما: ظلمُ النَّفسِ؛ وأعظمُهُ: الشِّركُ، ثُمَّ يليهِ: المعاصِي علَىٰ اختلافِ أجناسِهَا؛ مِن كبائرَ وصغائرَ.

والثَّاني: ظلمُ العبدِ لغيرِهِ؛ وهُوَ المذكورُ في هذَا الحديثِ.

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن ابنِ عُمَرَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ «**الظُّلمُ ظُلُماتٌ؛ يومَ القيامةِ**»[٢]، وفي «صَحيح البُخَارِيِّ»، عَن أبي هُرَيرَةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَن كانَتْ عِندَهُ مظلَمَةٌ لأخيهِ؛ فليتحلَّلَهُ مِنها؛ فإنَّه ليسَ ثَمَّ دينارٌ ولَا دِرْهَمٌ، مِن قبلِ أَن يؤخذَ لأخيهِ مِن حسناتِهِ، فإن لَم يكنْ لَهُ حسناتٌ؛ أُخِذَ مِن سيئاتِ أخيهِ؛ فطُرِحَتْ عليهِ**»[٣].



(١) مع عدم تصور وقوعه منه سبحانه لكمال عدله وإحسانه. (الشيخ عبد العزيز الطريفي).
(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٤٤٧)؛ ومُسلِمٌ (٢٥٧٩).
(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٤٤٩).

• قولُه ﷺ: «يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَن هديتُهُ؛ فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ؛ يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَن أَطعمتُهُ؛ فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي؛ إنَّكُمْ تُخطِئُونَ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ، وأنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً؛ فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»:

هذَا يقتَضِي أنَّ جميعَ الخلقِ مُفتقِرونَ إلَىٰ اللهِ تعالَىٰ في جَلْبِ مصالِحِهم، ودَفعِ مضارِّهم؛ في أُمُورِ دينِهم ودُنياهُم، وأنَّ العبادَ لا يملكونَ لأنفسِهِم شيئاً مِن ذلكَ كُلِّه؛ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف].

وفي الحديثِ دليلٌ علَىٰ أنَّ اللهَ يحبُّ أَن يسألَهُ العبادُ جميعَ مصالِحِ دينِهِم ودُنياهم؛ مِن الطَّعامِ، والشَّرابِ، والكسوةِ، وغيرِ ذلكَ؛ كمَا يسألونَهُ الهدايَةَ والمغفرَةَ.

وفي الحديثِ: «**لِيسألْ أحدُكُم ربَّهُ حاجتَهُ كلَّها؛ حتَّىٰ يسألَهُ شسعَ نعلِهِ إذَا انقطعَ**»[(١)].

وكانَ بعضُ السَّلَفِ يسألُ اللهَ كلَّ حوائجِهِ؛ حتَّىٰ ملح عجينِهِ، وعلف شاتِهِ؛ فإنَّ كلَّ مَا يحتاجُ العبدُ إليهِ إذَا سألَهُ مِن اللهِ؛ فقدْ أظهرَ حاجتَهُ فيهِ؛ وافتقارَهُ إلَىٰ اللهِ؛ وذلكَ يحبُّهُ اللهُ.

وكانَ بعضُ السَّلَفِ يستَحْيِي مِن اللهِ أَن يسألَهُ شيئاً مِن مصالِحِ الدُّنيا! والاقتداءُ بالسُّنَّةِ أولَىٰ[(٢)].



(١) أخرجَهُ التِّرمذيُّ ـ كمَا في بعضِ النُّسخِ ـ انظر: «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» (١٣٩٢)، وذكرَ الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: أنَّ الحافظَ ابنَ حجرٍ حسَّنَه في «زوائد البزَّار» (ص٣٠٥).

(٢) ومن أظهر الأدلة علىٰ ذلك ثناء الله علىٰ المؤمنين الذين يدعونه فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة].

• وقولُه: «**كُلُّكُم ضَالٌّ إلَّا مَن هديتُه**»:

قدْ ظنَّ بعضُهم أنَّه معارِضٌ لِحديثِ عياضِ بنِ حمارٍ، [عَن النَّبيِّ ﷺ]: «**يقولُ اللهُ ﷻ: خلقتُ عبادِي حُنفاءَ** (وفي رِوايةٍ: «**مُسلمينَ**»)؛ **فاجتالتْهُم الشَّياطينُ**»[1]؛ وليسَ كذلكَ؛ فإنَّ اللهَ خلقَ بنِي آدمَ وفَطَرَهم علَىٰ قَبولِ الإسلامِ، والميلِ إليهِ دُونَ غيرِهِ، والتَّهيُّؤ لذلكَ، والاستعدادِ لَهُ بالقوَّةِ، لكنْ؛ لَا بُدَّ للعبدِ مِن تعليمِ الإسلامِ بالفعلِ؛ فإنَّه قبلَ التَّعليمِ جاهلٌ لَا يعلمُ شيئاً؛ كمَا قالَ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، وقالَ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى]، والمرادُ: وجدَكَ غيرَ عالِمٍ بمَا علَّمَكَ مِن الكتابِ والحِكْمَةِ، وكمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فالإنسانُ يولَدُ مفطوراً علَىٰ قَبولِ الحقِّ، فإنْ هدَاهُ اللهُ؛ سبَّبَ لهُ مَن يعلِّمُهُ الهُدَىٰ؛ فصارَ مهتدياً بالفعلِ بعدَ أَن كانَ مهتدياً بالقوَّةِ، وإنْ خذلَهُ؛ قيَّضَ لهُ مَن يعلِّمُهُ مَا يُغيِّرُ فطرتَهُ؛ كمَا قالَ ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يُولدُ علَىٰ الفطرةِ؛ فأبواهُ يَهُوِّدَانِهِ، ويُنصِّرانِهِ، ويمجِّسانِهِ**»[2].

وأمَّا سؤالُ المؤمنِ مِن اللهِ الهدايةَ؛ فإنَّ الهدايةَ نوعانِ:

هدايةٌ مجملةٌ؛ وهِيَ: الهدايةُ للإسلامِ والإيمانِ، وهي حاصلةٌ للمؤمنِ.

وهدايةٌ مفصَّلةٌ؛ وهِيَ: هدايتُهُ إلَىٰ معرفةِ تفاصيلِ أجزاءِ الإيمانِ والإسلامِ، وإعانتُه علَىٰ فعلِ ذلكَ؛ وهذَا يحتاجُ إليهِ كلُّ مؤمنٍ ليلاً ونهاراً؛ ولهذَا؛ أمرَ اللهُ عبادَهُ أَن يقرَأوا في كلِّ ركعةٍ مِن صلاتِهم قولَهُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يقولُ ـ في دُعائِهِ باللَّيْلِ ـ: «**اهْدِنِي لمَا اختُلِفَ فيهِ مِن الحقِّ بإذنِكَ؛ إنَّكَ تَهْدِي مَن تشاءُ إلَىٰ صراطٍ مُستَقيمٍ**»[3].

---

(١) خرَّجَهُ مُسلِمٌ (٢٨٦٥).
(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣/ ٢١٩)؛ ومُسلِمٌ (٢٦٥٨).
(٣) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٧٧٠).

ولهذا؛ يُشمَّتُ العاطسُ؛ فيُقالُ لهُ: «يرحمُكَ اللهُ»؛ فيقولُ: «يَهْدِيكُم اللهُ»؛ كمَا جاءتِ السُّنَّةُ بذلكَ[1]، وإنْ أنكرَهُ مَن أنكرَهُ مِن فقهاءِ العِرَاقِ؛ ظنّاً مِنهُم أنَّ المسلمَ لا يحتاجُ أَن يُدعَىٰ لَه بالهُدَىٰ! وخالفَهُم جمهورُ العلماءِ؛ اتِّباعاً للسُّنَّةِ في ذلكَ.

وقدْ أمرَ النَّبيُّ ﷺ عليّاً أَن يسألَ اللهَ السَّدادَ والهُدَىٰ[2].

وأمَّا الاستغفارُ مِن الذُّنوبِ: فهُوَ طلبُ المغفرةِ، والعبدُ أحوجُ شيْءٍ إليهِ؛ لأنَّه يخطئُ باللَّيلِ والنَّهارِ، وقد تكرَّرَ في القرآنِ ذكرُ التَّوبةِ والاستغفارِ، والأمرُ بِهما، والحثُّ عليهِما.

وخرَّجَ البُخَارِيُّ، مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«واللهِ؛ إنِّي لأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ في اليومِ أكثرَ مِن سبعينَ مرَّةً»**[3]، وخرَّجَهُ النَّسائيُّ وابنُ ماجَه؛ ولفظُهما: **«إنِّي لأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ كلَّ يومٍ مِئةَ مرَّةٍ»**[4].

وخرَّجَ مُسلِمٌ، مِن حديثِ الأغَرِّ المُزَنيِّ، سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: **«يَا أيُّها النَّاسُ؛ تُوبُوا إلَىٰ ربِّكم؛ فإنِّي أتوبُ إليهِ في اليومِ مِئةَ مَرَّةٍ»**[5]، وخرَّجَهُ النَّسائيُّ؛ ولفظُه: **«يَا أيُّها النَّاسُ؛ تُوبُوا إلَىٰ ربِّكم واستغفِرُوه؛ فإنِّي أتوبُ إلَىٰ اللهِ وأستغفرُه كلَّ يومٍ مِئةَ مرَّةٍ»**[6].



• قولُه ﷺ: **«يَا عِبَادِي؛ إنَّكم لَن تبلُغُوا ضَرِّي فتَضُرُّونِي، ولَن تبلُغُوا نَفْعِي فتنفَعُونِي»:**

يَعنِي: أنَّ العبادَ لَا يقدرون أن يوصلُوا إلَىٰ اللهِ نفعاً ولَا ضَرّاً؛ فإنَّ اللهَ

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٨٧٠).
(٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٢٧٢٥) ـ وتقدَّمَ ـ.
(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٩٤٨).
(٤) أخرجَهُ النَّسائيُّ في «الكبرىٰ» (٦/ ١١٤)؛ وابنُ ماجَه (٣٨١٥).
(٥) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٢٧٠٢).
(٦) أخرجَهُ النَّسائيُّ في «الكبرىٰ» (٦/ ١١٦).

ـ تعالَىٰ ـ في نفسِهِ غنيٌّ حميدٌ؛ لَا حاجةَ لهُ بطاعاتِ العبادِ، ولَا يعودُ نفعُها إليهِ؛ وإنَّما هُم ينتفعونَ بِهَا، ولَا يتضرَّرُ بمعاصِيهم؛ وإنَّما هُم يتضرَّرُونَ بِهَا.

قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقالَ: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يقولُ في خُطبتِهِ: «**مَنْ يعصِ اللهَ ورَسُولَهُ؛ فقدْ غَوَىٰ، ولَا يضرُّ إلَّا نفسَهُ، ولَا يضرُّ اللهَ شيئاً**»[1]، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿...وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء]، وقالَ حاكياً عَن مُوسَىٰ ﵇: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم]، وقالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

والمعنَىٰ: أنَّه تعالَىٰ يُحبُّ مِن عبادِهِ أَن يتَّقوهُ ويُطيعُوهُ، كمَا أنَّه يكرَهُ مِنهم أَن يَعْصُوهُ؛ ولهذَا يفرحُ بتوبةِ التَّائبينَ إليهِ؛ أشدَّ مِن فرحِ مَنْ ضَلَّتْ راحلتُه؛ الَّتِي عليها طعامُهُ وشرابُهُ بفَلاةٍ مِنَ الأرضِ، وطلبَها؛ حتَّىٰ أعيَىٰ وأَيِسَ مِنها، واستسلمَ للموتِ، وأَيِسَ مِن الحياةِ، ثُمَّ غلبتْهُ عينُهُ؛ فنامَ؛ فاسْتيقظَ وهِيَ قائمة عِندَه، وهذَا أعلَىٰ مَا يتصوَّرَهُ المخلوقُ مِن الفرحِ، هذَا كلُّهُ معَ غِنَاهُ عَن طاعاتِ عِبادِهِ وتوباتِهم إليهِ، وأنَّه إنَّما يعودُ نفعُهَا إليهِم دونَه، ولكنْ هذَا مِن كمالِ جُودِهِ وإِحسانِهِ إلَىٰ عبادِهِ، ومحبَّتِهِ لنَفعِهم، ودَفْعِ الضَّرَرِ عَنهُم؛ فهُوَ يُحِبُّ مِن عبادِهِ أَن يعرفُوهُ، ويحبُّوهُ، ويخافُوهُ، ويتَّقُوهُ، ويُطيعُوهُ، ويتقرَّبُوا إليهِ، ويُحِبُّ أَن يعلمُوا أنَّه لَا يغفرُ الذُّنوبَ غيرُه، وأنَّه قادرٌ علَىٰ مغفرةِ ذنوبِ عبادِهِ؛ كمَا في رِوايةِ عَبْدِ الرَّحمٰنِ بن غَنْمٍ، عَن أَبي ذَرٍّ لهذَا الحديثِ: «**مَن عَلِمَ مِنكُم أنِّي ذُو قُدرةٍ علَىٰ المغفرةِ، ثُمَّ استغفرَنِي؛ غفرتُ لهُ، ولَا أُبالِي**».

---

(١) أخرجَهُ أبو داودَ (١٠٩٧) (٢١١٩)، وإسنادُهُ ضعيفٌ.

وتفكَّرُوا في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ فإنَّ فيهِ إشارةً إِلَىٰ أنَّ المُذنبينَ ليسَ لَهم مَن يلجئونَ إليهِ، ويُعوِّلونَ عليهِ في مغفرةِ ذُنُوبِهم غيرُهُ. وكذلكَ؛ قولُهُ في حَقِّ الثَّلاثةِ الَّذِينَ خُلِّفوا: ﴿...حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة]؛ فرتَّبَ توبتَهُ عليهِم علَىٰ ظنِّهم أنْ لَا ملجأَ مِن اللهِ إلَّا إليهِ؛ فإنَّ العبدَ إذَا خافَ مِن مخلوقٍ؛ هربَ مِنهُ، وفرَّ إلَىٰ غيرِهِ، وأمَّا مَن خافَ مِن اللهِ؛ فمَا لهُ مِنْ مَلْجَأٍ يلجأُ إليهِ، ولا مهرَبَ إليهِ إلَّا هُوَ؛ فيهربُ مِنهُ إليهِ؛ كمَا كانَ النَّبيُّ ﷺ [يقولُ في دُعائِهِ]: «**لَا مَلْجَأَ، ولَا مَنْجَا مِنكَ إلَّا إليكَ**»[1]، وكانَ يقولُ: «**أعوذُ برضاكَ مِن سَخَطِكَ، وبعَفوِكَ مِن عقوبتِكَ، وبكَ منكَ**»[2].

• قولُه ﷺ: «**يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، ولَو كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً**»:

هُوَ إشارةٌ إلَىٰ أنَّ مُلْكَهُ لَا يزيدُ بطاعةِ الخَلْقِ، ولَو كانُوا كلُّهم بررةً أتقياءَ؛ قلوبهم علَىٰ أتقَىٰ قلبِ رجلٍ مِنهُم، ولَا ينقصُ مُلْكُه بمعصيةِ العاصينَ، ولَو كانَ الجِنُّ والإنسُ كلُّهم عُصاةً فجرةً؛ قلوبهم علَىٰ قلبِ أفجرِ رجلٍ مِنهُم؛ فإنَّه سُبحانَهُ الغنيُّ بذاتِهِ عمَّن سِوَاهُ، ولهُ الكمالُ المُطْلَقُ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ؛ فمُلْكُه ملكٌ كاملٌ؛ لَا نقصَ فيهِ بوَجْهٍ مِن الوُجُوهِ.



(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٧٠٥٠)؛ ومُسلِمٌ (٢٧١٠).
(٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٤٨٦).

• قولُه ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ؛ فسَأَلُونِي؛ فأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي؛ إِلَّا كمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ»:

المرادُ بهذَا: ذكرُ كمالِ قُدْرَتِهِ سُبحانَهُ، وكمالِ مُلْكِهِ، وأنَّ مُلْكَهُ وخزائنَهُ لَا تنفدُ ولا تنقصُ بالعطاءِ، ولَو أعطَىٰ الأوَّلينَ والآخرِينَ ـ مِن الجِنِّ والإنسِ ـ جميعَ مَا سألُوهُ في مقامٍ واحدٍ! وفي ذلكَ حَثٌّ للخَلْقِ علَىٰ سؤالِهِ، وإنزالِ حوائجِهم بهِ.

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن أَبي هُرَيرةَ ﷺ، عَن النَّبيِّ ﷺ: «**يدُ اللهِ ملأَىٰ؛ لَا تغيضُها نفقةٌ، سَحَّاء اللَّيلَ والنَّهارَ؛ أفرأيتُم مَا أنفقَ مُنذُ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ؟ فإنَّه لم يَغِضْ مَا في يمينِهِ**»[1].

وقولُه ﷺ: «**لَم ينقصْ ذلكَ ممَّا عِندِي؛ إلَّا كمَا ينقصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ**»؛ لِتحقيقِ أنَّ مَا عِندَهُ لَا ينقصُ البتةَ؛ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]؛ فإنَّ البحرَ إذَا غُمِسَ فيهِ إبرةٌ، ثُمَّ أخرجتْ؛ لَم ينقصْ مِن البحرِ بذلكَ شيْءٌ؛ وهذَا؛ لأنَّ البحرَ لَا يزالُ تمدُّهُ مياهُ الدُّنيا وأنهارُها الجاريةُ؛ فمَهْما أُخِذَ منه؛ لَم ينقصْهُ شيْءٌ؛ لأنَّه يمدُّه مَا هُوَ أزيدُ ممَّا أُخِذَ مِنْهُ، وهكذَا طعامُ الجنَّةِ ومَا فِيها؛ فإنَّه لَا ينفدُ؛ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة].

وقدْ بيَّنَ في الحديثِ ـ الَّذِي خرَّجَهُ التِّرمِذيُّ وابنُ ماجَه ـ السَّببَ الَّذِي لأجلِهِ لَا ينقصُ مَا عِندَ اللهِ بالعطاءِ؛ بقولِهِ ﷺ: «**ذلكَ بأنِّي جوادٌ واجدٌ ماجدٌ، أفعلُ مَا أُريدُ؛ عطائِي كلامٌ، وعذابِي كلامٌ؛ إنَّما أمرِي لشيْءٍ إذَا أردتُ؛ أَن أقولَ لهُ: كنْ؛ فيكونَ**»[2].

---

(١) أخرجَهُ البُخارِيُّ (٧٤١١)؛ ومُسلِمٌ (٩٩٣).
(٢) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٢٤٩٥)؛ وابنُ ماجَه (٤٢٥٧)، قالَ التِّرمِذيُّ: «هذَا حديثٌ حَسَنٌ».

لَا تخضعنَّ لمخلوقٍ علَىٰ طَمَعٍ فإنَّ ذَاكَ مُضِرٌّ مِنكَ بالدِّينِ
واسترزقِ اللَّهَ مِمَّا في خَزَائِنِهِ فإنَّما هِيَ بَيْنَ الكافِ والنُّونِ

• قولُه ﷺ: «يا عِبَادِي؛ إنَّما هِيَ أعمالُكم أُحصيهَا لَكُم، ثُمَّ أُوَفِّيكم إيَّاهَا»:

يَعنِي: أنَّه ـ سُبحانَهُ ـ يُحصِي أعمالَ عبادِه، ثُمَّ يُوَفِّيهم إيَّاها بالجزاءِ عليهَا؛ وهذَا كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ [التحريم]، وقولِهِ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف].



• وقولُه ﷺ: «فمَن وَجَدَ خيراً؛ فلْيحمَدِ اللهَ، ومَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ؛ فلَا يلومنَّ إلَّا نفسَهُ»:

إشارَةٌ إلَىٰ أنَّ الخيرَ كلَّهُ مِن اللهِ؛ فَضْلٌ مِنهُ علَىٰ عبدِهِ؛ مِن غيرِ استحقاقٍ لهُ، والشَّرَّ كلَّه مِن عندِ ابنِ آدمَ؛ مِن اتِّباعِ هوَىٰ نفسِهِ؛ كمَا قالَ ﷻ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؛ فاللهُ سُبحانَهُ إذَا أرادَ توفيقَ عبدٍ وهدايتَهُ؛ أعانَهُ ووَفَّقَهُ لطاعتِهِ؛ فكانَ ذلكَ فضلاً مِنهُ، وإذَا أرادَ خُذلانَ عبدٍ؛ وكَلَهُ إلَىٰ نفسِهِ، وخلَّىٰ بينَهُ وبينَهَا؛ فأغواهُ الشَّيطانُ لغفلتِهِ عَن ذكرِ اللهِ، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف]، وكانَ ذلكَ عدلاً مِنهُ؛ فإنَّ الحُجَّةَ قائمةٌ علَىٰ العبدِ بإنزالِ الكتابِ، وإرسالِ الرَّسُولِ؛ فمَا بَقِيَ لأحدٍ مِن النَّاسِ علَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ.

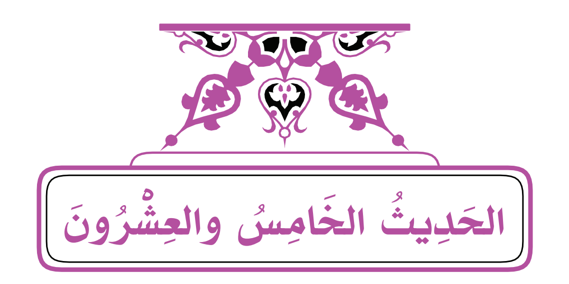
وقدْ أخبرَ اللهُ تعالَىٰ عَن أهلِ الجنَّةِ: أنَّهم يحمدونَ اللهَ علَىٰ مَا رزقَهُم

من فضلِهِ؛ فقالَ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقالَ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقالَ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر].

وأخبرَ عَن أهلِ النَّارِ: أنَّهم يلومونَ أنفسَهُم، ويمقتونَها أشدَّ المقتِ؛ فقالَ ـ تعالَىٰ ـ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].





الحَدِيثُ الخَامِسُ والعِشْرُونَ

عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

أَنَّ أُنَاساً مِن أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالُوا للنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُورِ؛ يُصلُّونَ كمَا نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كمَا نَصُومُ، ويَتَصَدَّقُونَ بفُضُولِ أَمْوَالِهم.

قالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟! إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَة، ونَهْيٍ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَة، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَة».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟

قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا في الحَرَامِ؛ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فكَذَلِكَ؛ إِذَا وَضَعَهَا في الحَلَالِ؛ كانَ لَهُ أَجْرٌ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشَّرْح

في هذَا الحديثِ دليلٌ علَىٰ أنَّ الصَّحابةَ كانُوا يحزنونَ علَىٰ مَا يتعذَّرُ عليهِم فِعْلُه مِن الخيرِ ممَّا يقدرُ عليهِ غيرُهم[١].

وفي هذَا الحديثِ: أنَّ الفقراءَ غبطُوا أهلَ الدُّثورِ ـ و(الدُّثُور): هِيَ

---

(١) والموفق من ينظر إلىٰ من فوقه في أمر دينه ليزداد، وإلىٰ من تحته في أمر دنياه ليقنع.
(الشيخ عبد العزيز الطريفي).

الأموالُ ـ بمَا يحصلُ لَهم مِن أجرِ الصَّدَقَةِ بأموالِهِم؛ فدَلَّهم النَّبيُّ ﷺ علَىٰ صَدَقَاتٍ يقدِرُونَ عليهَا.

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن أبي صالحٍ، عَن أبي هُرَيرةَ، أنَّ فقراءَ المهاجرينَ أتوا النَّبيَّ ﷺ؛ فقالُوا: ذَهَبَ أهلُ الدُّثُورِ بالدَّرجاتِ العُلَىٰ والنَّعيمِ المُقيمِ! فقالَ: «**ومَا ذاكَ؟**»؛ قالُوا: يُصَلُّونَ كمَا نُصلِّي، ويصومونَ كمَا نصومُ، ويتصَدَّقونَ ولَا نتصدَّقُ، ويعتقونَ ولَا نعتقُ؛ فقالَ ﷺ: «**أفلَا أعلِّمُكُم شيئاً؛ تُدْرِكُونَ بِهِ مَن قدْ سبقَكُم، وتَسبقونَ بِهِ مَن بعدَكُم، ولَا يكونُ أحدٌ أفضلُ مِنكُم، إلَّا مَن صنعَ مِثْلَ مَا صنعتُم؟**»؛ قالُوا: بلَىٰ يَا رَسُول اللهِ؛ قالَ: «**تُسبِّحونَ، وتكبِّرونَ، وتحمدونَ ـ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ـ ثلاثاً وثلاثينَ مَرَّةً**»، قالَ أبو صالحٍ: فرجعَ فقراءُ المهاجرينَ إلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فقالُوا: سَمِعَ إخوانُنا أهلُ الأموالِ بمَا فعلنَا؛ ففعلُوا مِثْلَهُ! فقالَ ﷺ: «**ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَن يشاءُ**»[(١)].

ومعنَىٰ هذَا: أنَّ الفقراءَ ظنُّوا أنْ لَا صدقةَ إلَّا بالمالِ وهُمْ عاجزونَ عَن ذلكَ؛ فأخبرَهم ﷺ: أنَّ جميعَ أنواعِ فِعْلِ المعروفِ والإحسانِ صَدَقَةٌ.

والصَّدَقَةُ بغيرِ المالِ نَوعانِ:

أَحدُهما: مَا فيهِ تعديةُ الإحسانِ إلَىٰ الخَلْقِ؛ فيكونُ صَدَقَةً عليهِم، وربَّما كانَ أفضلَ مِن الصَّدَقَةِ بالمالِ؛ وهذَا كالأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَن المُنكرِ؛ فإنَّه دعاءٌ إلَىٰ طاعةِ اللهِ، وكفٌّ عَن مَعاصيهِ، وذلكَ خيرٌ مِن النَّفْعِ بالمالِ، وكذلكَ تعليمُ العِلْمِ النَّافِعِ، وإقراءُ القرآنِ، وإزالةُ الأذَىٰ عَن الطَّريقِ، والسَّعْيُ في جَلْبِ النَّفْعِ للنَّاسِ، ودَفْعِ الأذَىٰ عَنهُم، وكذلكَ الدُّعاءُ للمسلمينَ، والاستغفارُ لَهم.

ومِن أنواعِ الصَّدَقَةِ: كفُّ الأذَىٰ عَن النَّاسِ؛ ففِي «الصَّحيحينِ»، عَن أبي ذَرٍّ، قالَ: قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قالَ: «**الإيمانُ باللهِ،**

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٨٤٢)؛ ومُسلِمٌ (٩٥).

والجهادُ في سبيلِهِ»؛ قلتُ: فأيُّ الرِّقابِ أفضلُ؟ قالَ: «**أنفسُهَا عِندَ أهلِهَا، وأكثرُهَا ثَمَناً**»؛ قلتُ: فإنْ لَم أفعلْ؛ قالَ: «**تُعينُ صانعاً، أَو تصنعُ لأخرقَ**»؛ قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أرأيتَ إنْ ضَعُفْتُ عَن بعضِ العملِ؟ قالَ: «**تكفُّ شرَّكَ عَن النَّاسِ؛ فإنَّها صَدَقَةٌ**»[1].

وقدْ صَحَّ الحديثُ بأنَّ نفقةَ الرَّجُلِ علَىٰ أهلِهِ صَدَقَةٌ؛ وفي «صَحيح مُسلِم»، عَن أبي هُرَيرةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**دِينارٌ أنفقتَهُ في سبيلِ اللهِ، ودِينارٌ أنفقتَهُ في رقبةٍ، ودِينارٌ تصدَّقتَ بهِ علَىٰ مسكينٍ، ودِينارٌ أنفقتَهُ علَىٰ أَهْلِكَ؛ أفضلُها: الَّذِي أنفقتَهُ علَىٰ أَهْلِكَ**»[2].

وفي هذَا المعنَىٰ أحاديثُ كثيرةٌ؛ يطولُ ذكرُهَا.

وفي «الصَّحيحينِ»، عن أنسٍ، عَن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**مَا مِن مُسلِمٍ يغرسُ غرساً، أَو يزرعُ زرعاً؛ فيأكلُ مِنهُ إنسانٌ، أَو طيرٌ، أَو دابَّةٌ؛ إلَّا كانَ لهُ صَدَقَة**»[3].

النَّوعُ الثَّانِي مِن الصَّدَقةِ الَّتِي ليستْ ماليَّةً: مَا نفعُهُ قاصِرٌ علَىٰ فاعلِهِ؛ كأنواعِ الذِّكْرِ.

ولَم يذكرِ الصَّلاةَ والصِّيامَ والحَجَّ والجِهادَ أنَّه صدقةٌ؛ لأنَّه إنَّما ذكرَ ذلكَ جواباً لسؤالِ الفُقراءِ؛ الَّذِينَ سألُوه عمَّا يُقاوِمُ تطوُّعَ الأغنياءِ بأموالِهِم، وأمَّا الفرائضُ؛ فقدْ كانُوا كلُّهم مشتركينَ فِيهَا.



وقَد تكاثرتِ النُّصوصُ بتفضيلِ الذِّكْرِ علَىٰ الصَّدَقةِ وغيرِهَا مِن الأعمالِ؛ كمَا في حديثِ أَبي الدَّرداءِ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**ألَا أُنبِّئُكُم بخيرِ أعمالِكُم،**

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٥١٨)؛ ومُسلِمٌ (٨٤).

(٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٩٩٥).

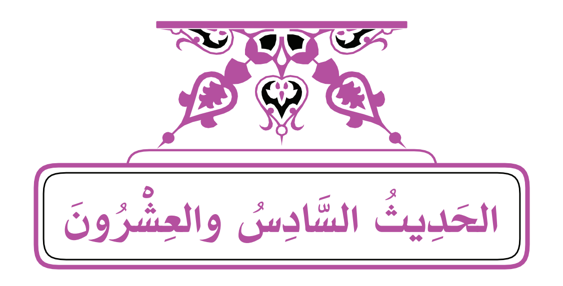
(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٣٢٠)؛ ومُسلِمٌ (١٥٥٣).

وأزكَاهَا عِندَ مَلِيكِكُم، وأرفَعِهَا في درجاتِكُم، وخيرٍ لكُم مِن إنفاقِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وخيرٍ لكُم مِن أَن تلقَوا عَدُوَّكُم؛ فتضربُوا أعناقَهُم، ويضربُوا أعناقَكُم؟»؛ قالُوا: بلىٰ ـ يَا رَسُول اللهِ ـ؛ قالَ: «**ذِكْرُ اللهِ** ﷻ»، خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ والتِّرمِذيُّ[1].

وفي المعنَىٰ أحاديثُ أُخَرُ متعدِّدَةٌ.



(١) أخرجَهُ أحمدُ (٥/ ١٩٥)؛ والتِّرمِذيُّ (٣٣٧٧)، وزادَ: فقالَ مُعاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه: «مَا شيءٌ أنجَىٰ مِن عذابِ اللهِ مِن ذِكْرِ اللهِ»، وقالَ عَنهُ الحاكمُ: «صحيحُ الإسنادِ»، وحسَّنَ إسنادَهُ المنذريُّ، وصحَّحَه الألبانيُّ في «صَحيح الترغيب» (١٤٩٣).



الحَدِيثُ السَّادِسُ والعِشْرُونَ

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:
«كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ؛ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ؛ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ».

رَوَاهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ.

الشَّرْح

• قولُه ﷺ: «كلُّ سُلامىٰ من النَّاسِ عليهِ صَدَقَةٌ»:

قالَ أبو عُبيدٍ: «السُّلَامىٰ في الأصلِ: عظمٌ يكونُ في فِرْسِنِ البَعيرِ»؛ قالَ: فكأنَّ معنَىٰ الحديثِ: علَىٰ كلِّ عظمٍ مِن عظامِ ابنِ آدمَ صَدَقَةٌ».

وخرَّجَ مُسلِمٌ، مِن حديثِ عائشةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**خُلِقَ ابنُ آدمَ علَىٰ سِتِّينَ وثلاثِ مئة مفصلٍ، فمَن ذكرَ اللهَ، وحَمدَ اللهَ، وهلَّلَ اللهَ، وسبَّحَ اللهَ، وعزلَ حَجَراً عَن طريقِ المُسلمينَ، أو عزلَ شوكةً، أو عزلَ عَظْماً، أو أمرَ بمعروفٍ، أو نَهَىٰ عَن مُنكَرٍ، عددَ تلك السِّتِّينَ والثَّلاثِ مِئة السُّلَامىٰ؛ أمسَىٰ مِن يومِهِ وقدْ زَحْزَحَ نفسَهُ عَن النَّارِ**»(١).

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ، مِن حديثِ بُريدةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ:

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (١٠٠٧).

«**في الإنسانِ ثلاثُ مِئةٍ وسِتُّونَ مفصلاً؛ فعليهِ أَن يتصدَّقَ عَن كلِّ مفصلٍ مِنهُ بصَدَقَةٍ**»؛ قالُوا: ومَن يطيقُ ذلكَ يَا نبيَّ اللهِ؟ قالَ: «**النَّخاعةُ**[1] **في المسجدِ تدفِنُها، والشَّيْءُ تُنحِّيهِ عَن الطَّرِيقِ، فإنْ لَم تجدْ؛ فركعتَا الضُّحَىٰ تجزئُكَ**»[2].

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن أبي مُوسَىٰ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**علَىٰ كلِّ مُسْلِم صَدَقَةٌ**»؛ قالُوا: فإنْ لَم يجدْ؟ قالَ: «**فيعملُ بيدِهِ؛ فينفعُ نفسَهُ، ويتصدَّقُ**»؛ قالُوا: فإنْ لَم يستطعْ أَو لَم يفعلْ؟ قالَ: «**يُعينُ ذَا الحاجةِ الملهوفَ**»؛ قالُوا: فإنْ لَم يفعلْ؟ قالَ: «**فلْيأمُرْ بالخيرِ**، ـ أو قالَ: ـ **بالمعروفِ**»؛ قالُوا: فإنْ لَم يفعلْ؟ قالَ: «**فليُمسِكْ عَنِ الشَّرِّ؛ فإنَّه لهُ صَدَقَةٌ**»[3].



فمعنَىٰ الحديثِ: أنَّ تركيبَ هذِهِ العظامِ وسلامتَها مِن أعظمِ نِعَمِ اللهِ علَىٰ عبدِهِ؛ فيحتاجُ كلُّ عظمٍ مِنهَا إلَىٰ صَدَقَةٍ يتصدَّقُ ابنُ آدمَ عَنهُ؛ ليكونَ ذلكَ شكراً لهذِهِ النِّعْمَةِ.

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار]، وقالَ ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك]، وقالَ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد].

والشُّكرُ علَىٰ دَرَجَتَينِ:

إحداهما: واجبٌ: وهُوَ أَن يأتيَ بالواجباتِ، ويجتنبَ المحارمَ؛ فهذَا لَا بُدَّ مِنهُ، ويكفِي في شُكرِ هذِهِ النِّعمِ.

---

(١) (النُّخاعةُ) كالنُّخامة؛ وزناً ومعنًى.

(٢) أخرجَهُ أحمدُ (٥/ ٣٥٤)؛ وصحَّحَه الشَّيخُ الألبانيُّ في «صَحيح الترغيب» (٦٦٦).

(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٦٧٦)؛ ومُسلِمٌ (١٠٠٨).

الدَّرجة الثَّانية: الشُّكرُ المستحبُّ: وهُوَ أَن يعملَ العبدُ ـ بعدَ أداءِ الفرائضِ، واجتنابِ المحارمِ ـ بنوافِلِ الطَّاعاتِ؛ وهذِهِ درجةُ السَّابِقينَ المقرَّبينَ؛ وكذلكَ كانَ النَّبيُّ ﷺ يجتهدُ في الصَّلاةِ، ويقومُ حتَّىٰ تتفطَّرَ قدماهُ، فإذَا قِيلَ لهُ: أتفعلُ هذَا؛ وقدْ غُفِرَ لكَ مَا تقدَّمَ مِن ذنبِكَ ومَا تأخَّرَ؟! فيقولُ: «**أفلَا أكونُ عبداً شَكُوراً؟!**»[1].

وهذِهِ الأنواعُ الَّتي أشارَ إليهَا النَّبيُّ ﷺ مِن الصَّدَقَةِ؛ مِنهَا: مَا نفعُهُ مُتَعَدٍّ؛ كالإصلاحِ، والكلمةِ الطَّيِّبَةِ، وإزالةِ الأذىٰ عَن الطَّريقِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَن المُنكَرِ، ومِنهُ: مَا هُوَ قاصِرُ النَّفْعِ؛ كالتَّسبيحِ، والتَّكبيرِ، والتَّحميدِ، والتَّهلِيلِ، والمَشيِ إلَى الصَّلاةِ، وصَلاةِ رَكْعَتَي الضُّحَىٰ؛ وهُما إنَّما كانتَا مُجزئَتَينِ عَن ذلكَ كُلِّه؛ لأنَّ في الصَّلاةِ استعمالاً للأعضاءِ كلِّها في الطَّاعةِ والعبادَةِ؛ فتكونُ كافيةً في شكرِ نعمةِ سلامةِ هذِهِ الأعضاءِ، وبقيَّة الخصالِ المذكورةِ أكثرُها استعمالٌ لبعضِ أعضاءِ البدنِ خاصَّةً؛ فلَا تكملُ الصَّدَقَةُ بِهَا؛ حتَّىٰ يأتيَ مِنها بعددِ سُلَامىٰ البَدَنِ؛ وهِيَ ثلاثُ مِئةٍ وسِتُّونَ؛ كمَا في حديثِ عائشةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وعَن أَبِيهَا).



ومِن أنواعِ الصَّدَقَةِ القَاصِرَةِ علَىٰ نفسِ العاملِ بِهَا: أنواعُ الذِّكرِ، والصَّلاةُ علَىٰ النَّبيِّ ﷺ، وتلاوةُ القُرآنِ.

ومنها أيضاً: محاسبةُ النَّفسِ عَلىٰ ما سَلَفَ مِن أعمالِها، والنَّدمُ، والتَّوبةُ مِن الذُّنوبِ السَّالفةِ، والحزنُ عليهَا، واحتقارُ النَّفسِ والازدراءُ[2] عليهَا،

---

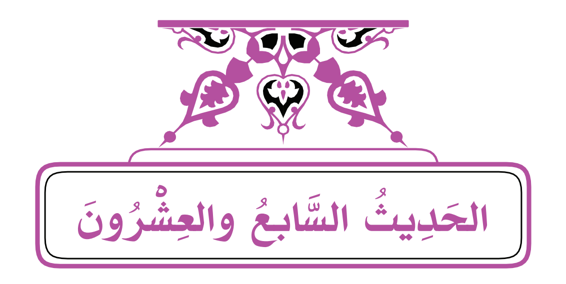
(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (١١٣٠)؛ ومُسلِمٌ (٢٨١٩).

(٢) هكذَا في أكثرِ مِن نسخةٍ؛ ولعلَّ الصَّوابَ: (الإزراء)؛ لأنَّ (الازدراءَ) يتعدَّىٰ بنفسِهِ، كمَا أنَّ السِّياقَ يدلُّ علَىٰ أنَّها (الإزراءُ)؛ بمعنَىٰ: عَيبِ النَّفسِ واحتقارِهَا.
ملحوظةٌ: الأصوبُ أَن يُقالَ: (الإزراءُ بِهَا) ـ لَا (عليها) ـ، واللهُ أعلَمُ. انظر: «لسان العربِ»، مادة: (زرىٰ).

والبكاءُ مِن خشيةِ اللهِ، والتَّفكُّرُ في مَلَكُوتِ السَّمٰواتِ والأرضِ، وفي أمورِ الآخرَةِ، ونحوِ ذلكَ ممَّا يزيدُ الإيمانَ في القلبِ، وينشأُ عنهُ كثيرٌ مِن أعمالِ القلوبِ: كالخشيةِ، والمحبَّةِ، والرَّجاءِ، والتَّوكُّلِ، وغيرِ ذلكَ.

وقدْ قيلَ: إنَّ هذَا التَّفكُّرَ أفضلُ مِن نوافلِ الأعمالِ البدنيَّةِ! رُوِيَ ذلكَ عَن غيرِ واحدٍ مِن التَّابعينَ؛ مِنهُم: سعيدُ بنُ المسيَّبِ، والحسنُ، وعُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ، وفي كلامِ الإمامِ أحمدَ مَا يدلُّ عليهِ، وقالَ كعبٌ: «لأَنْ أبكِي مِن خشيةِ اللهِ؛ أحبُّ إليَّ مِن أنْ أتصدَّقَ بوَزْنِي ذَهَباً»!





الحَدِيثُ السَّابعُ والعِشْرُونَ

عن النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ:
«البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ: مَا حَاكَ في نَفْسِكَ، وكَرِهْتَ أَن يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وعَنْ وَابِصَةَ بنِ مَعْبَدٍ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فقَالَ: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ والإِثْمِ؟».

قُلْتُ: نَعَمْ! قَالَ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ؛ البِرُّ: مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ، والإِثْمُ: مَا حَاكَ في النَّفْسِ، وتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ، وإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وأَفْتَوْكَ».

قالَ الشَّيْخُ رحمه الله: «حَدِيثٌ حَسَنٌ؛ رويناهُ في «مُسْنَدَي» الإمامَيْنِ: أحمدَ والدَّارِمِيِّ، بإسنادٍ حَسَنٍ»[(١)].

الشَّرْحُ

فسَّرَ النّبيُّ ﷺ (البِرَّ) في حديثِ النَّوَّاسِ بـ: «حُسْنِ الخُلُقِ»، وفسَّرَهُ في حديثِ وابصةَ بـ: «مَا اطمأنَّ إليهِ القلبُ والنَّفسُ»؛ وإنَّما اختلفَ تفسيرُهُ للبِرِّ؛ لأنَّ البِرَّ يُطلَقُ باعتبارَيْنِ:

(١) وهو معلول. (الشيخ عبد العزيز الطريفي).

أَحدهما: باعتبارِ معاملةِ الخَلْقِ، والإحسانِ إليهِم. وقدْ صنَّفَ ابنُ المبارَكِ كتاباً سَمَّاهُ «كتاب البِرِّ والصِّلَةِ»، وكذلكَ في «صَحيح البُخَارِيِّ» و«جَامِعِ التِّرمِذِيِّ»: «كتاب البِرِّ والصِّلَةِ». ويتضمَّنُ هذَا: الإحسانَ إلَىٰ الخَلْقِ عُموماً.

وكانَ ابنُ عُمَرَ يقولُ: «البِرُّ شيْءٌ هيِّنٌ؛ وَجْهٌ طليقٌ، وكلامٌ ليِّنٌ»!

المَعْنَىٰ الثَّاني مِن معنَىٰ البِرِّ: أَن يُرادَ بِهِ: فعلُ جميعِ الطَّاعاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ؛ كقولِهِ تعالَىٰ: ﴿...وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

فالبِرُّ ـ بهذَا المعنَىٰ ـ يدخلُ فيهِ: جميعُ الطَّاعاتِ الباطنةِ: كالإيمانِ باللهِ، وملائكتِهِ، وكُتبِهِ، ورُسُلِهِ، والظَّاهرةِ: كإنفاقِ الأموالِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والوفاءِ بالعَهْدِ، والصَّبرِ علَىٰ الأقدارِ: كالمرضِ والفقرِ، وعلَىٰ الطَّاعاتِ: كالصَّبرِ عندَ لقاءِ العَدُوِّ.

وقدْ يكونُ جوابُ النَّبيِّ ﷺ ـ في حديثِ النَّوَّاسِ ـ شاملاً لهذِهِ الخصالِ كلِّها؛ لأنَّ حُسْنَ الخُلُقِ قدْ يُرادُ بِهِ: التَّخلُّقُ بأخلاقِ الشَّريعةِ، والتَّأدُّبُ بآدابِ اللهِ الَّتِي أدَّبَ بِهَا عِبادَهُ في كتابِهِ.



• قولُه في حديثِ النَّوَّاسِ: **«الإِثْمُ: مَا حاكَ في الصَّدْرِ، وكرهتَ أَن يطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ»**:

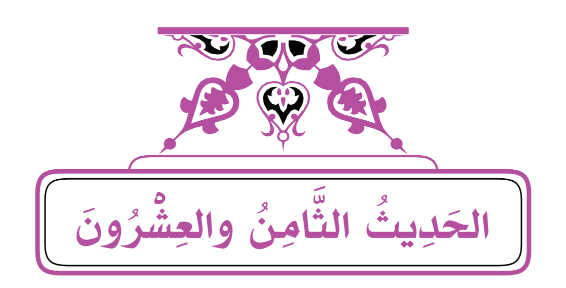
إشارةٌ إلَىٰ أنَّ (الإثمَ): مَا أثَّرَ في الصَّدْرِ حَرَجاً، وضِيقاً، وقَلَقاً، واضْطراباً؛ فلَم ينشرِحْ لهُ الصَّدْرُ، ومعَ هذَا؛ فهُوَ عِندَ النَّاسِ مُستنكَرٌ؛ بحيثُ ينكِرونَهُ عِندَ اطِّلاعِهِم عليهِ. وهذَا أعلَىٰ مراتبِ معرفةِ الإثمِ عِندَ الاشتباهِ؛ وهُوَ: مَا استنكَرَهُ النَّاسُ علَىٰ فاعلِهِ، وغيرِ فاعلِهِ.

• وقولُه في حديثِ وابصةَ وأبي ثعلبةَ: «وإنْ أفتاكَ المُفْتونَ»:

يَعنِي: أنَّ مَا حاكَ في صدرِ الإنسانِ؛ فهُوَ إثمٌ، وإنْ أفتاهُ غيرُه بأنَّه ليسَ بإثم. فهذِهِ مرتبةٌ ثانيةٌ؛ وهُوَ: أَن يكونَ الشَّيْءُ مستنكَراً عندَ فاعلِهِ، دُونَ غيرِهِ؛ وقدْ جعلَهُ أيضاً إثماً، وهذَا إنَّما يكونُ إذَا كانَ صاحبُهُ ممَّن شرحَ صدرهُ بالإيمانِ، وكانَ المُفْتِي لهُ يُفتِي بمجرَّدِ ظنٍّ، أو ميلٍ إلَىٰ هوًى، مِن غيرِ دليلٍ شرعيٍّ، فأمَّا مَا كانَ معَ المُفْتِي بهِ دليلٌ شرعيٌّ؛ فالواجبُ علَىٰ المُسْتَفْتِي الرُّجوعُ إليهِ، وإنْ لَم ينشرحْ لهُ صَدْرُه؛ وهذَا كالرُّخَصِ الشَّرعيَّةِ؛ مِثلُ: الفِطْرِ في السَّفَرِ والمَرَضِ، وقصرِ الصَّلاةِ في السَّفَرِ، ونحوِ ذلكَ ممَّا لَا ينشرحُ بهِ صدورُ كثيرٍ مِن الجُهَّالِ؛ فهذَا لا عبرةَ بهِ.

وفي الجملةِ: فمَا وردَ النَّصُّ بهِ؛ فليسَ للمؤمنِ إلَّا طاعةُ اللهِ ورَسُولِهِ، وينبَغِي أَن يتلقَّىٰ ذلكَ بانشراحِ الصَّدرِ والرِّضَا؛ فإنَّ مَا شرعَهُ اللهُ ورَسُولُه يجبُ الإيمانُ والرِّضَا بهِ والتَّسليمُ، وأمَّا مَا ليسَ فيهِ نصٌّ مِن اللهِ ورَسُولِهِ، ولَا عمَّنْ يُقتَدَىٰ بهِ مِن الصَّحابَةِ وسَلَفِ الأُمَّةِ؛ فإذَا وقعَ في نفسِ المؤمنِ ـ المطمئنِّ قلبُه بالإيمانِ، المنشرحِ صدرُهُ بنورِ المعرفةِ واليقينِ ـ مِنهُ شيْءٌ، وحكَّ في صدرِهِ؛ لشُبهةٍ موجودَةٍ، ولَم يجدْ مَن يُفتِي فيهِ بالرُّخصةِ، إلَّا مَن يخبرُ عَن رأيِهِ، وهُوَ ممَّن لَا يُوثَقُ بعلمِهِ وبدينِهِ، بلْ هُوَ معروفٌ باتِّباعِ الهوَىٰ؛ فهُنَا يرجعُ المؤمنُ إلَىٰ مَا حكَّ في صدرِهِ، وإنْ أفتاهُ هؤلاءِ المُفتونَ!





الحَدِيثُ الثَّامِنُ والعِشْرُونَ

عن العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً؛ وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، وذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ؛ فقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كأنَّها مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ؛ فأَوْصِنَا!

قَالَ: «أُوصِيكُمْ بتَقْوَىٰ اللهِ، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ ـ وإنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ ـ، وإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ؛ فسَيَرَىٰ اخْتِلَافاً كَثِيراً؛ فعَلَيْكُم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ؛ عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

رَوَاهُ أَبو دَاودَ، والتِّرْمِذِيُّ ـ وقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» ـ.



الشَّرح

هذَا الحديثُ خرَّجَهُ: الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والتِّرمِذِيُّ، وابنُ ماجَه.

وقالَ التِّرمِذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وقالَ الحافظُ أبو نُعَيْمٍ: «هُوَ حديثٌ جيِّدٌ؛ مِن صَحيحِ حديثِ الشَّاميِّينَ».



• قولُه ﷺ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ موعظةً:

كانَ النَّبيُّ ﷺ كثيراً مَا يعظُ أصحابَهُ في غيرِ الخُطَبِ الرَّاتبةِ؛ كخُطَبِ الجُمَعِ والأعيادِ، ولكنَّه كانَ لا يديمُ وعظَهُم؛ بلْ يتخوَّلَهم بهِ أحياناً؛ كمَا في «الصَّحيحينِ»، عَن أبي وائلٍ، قالَ: كانَ عَبْدُ اللهِ بنُ مسعودٍ يُذكِّرُنَا كلَّ يومِ

خميسٍ؛ فقالَ لهُ رَجُلٌ: يَا أبا عَبْدِ الرَّحمٰنِ؛ إنَّا نحبُّ حديثَكَ ونَشتَهيهِ؛ ولَوَدِدْنَا أنَّكَ حدَّثتنا كلَّ يوم! فقالَ: «مَا يمنعُنِي أنْ أُحَدِّثَكم إلَّا كراهةُ أن أُمِلَّكُم؛ إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يتخوَّلُنَا بالموعظَة؛ كراهةَ السَّآمةِ علينَا»(١).

والبلاغةُ في الموعظةِ مُستحسنَةٌ؛ لأنَّها أقربُ إلَىٰ قَبولِ القلوبِ واستجلابِها؛ والبلاغةُ: هِيَ التَّوصُّلُ إلَىٰ إفهامِ المعانِي المقصودةِ، وإيصالِها إلَىٰ قلوبِ السَّامِعينَ؛ بأحسنِ صُورةٍ مِن الألفاظِ الدَّالَّةِ عليهَا، وأفصحِها، وأحلَاها للأسماعِ، وأوقعِهَا في القلوبِ؛ وكانَ ﷺ يقصِّرُ خطبَهُ، ولا يُطيلُها؛ بلْ كانَ يُبلغُ ويُوجزُ.

* وقولُه: «ذَرَفَتْ مِنهَا العُيُونُ، ووَجِلَتْ مِنهَا القلوبُ»:

هذَانِ الوَصفانِ؛ بِهما مَدَحَ اللهُ المؤمنينَ عِندَ سماعِ الذِّكْرِ؛ كمَا قالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقالَ: ﴿...وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]، وقالَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وقالَ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].



* قولُهم: «كأنَّها موعظةُ مُوَدِّعٍ؛ فأَوْصِنَا»:

يدلُّ علَى أنَّه كانَ ﷺ قدْ أبلغَ في تلكَ الموعظةِ مَا لَم يُبلغْ في غيرِها؛ فلذلكَ فهِمُوا أنَّها موعظةُ مُوَدِّعٍ؛ فإنَّ المُوَدِّعَ يستَقْصِي مَا لَا يستَقْصِي غيرُه في القولِ والفعلِ؛ ولذلكَ؛ أمرَ النَّبيُّ ﷺ أن يصلِّي صلاةَ مُوَدِّعٍ(٢)؛ لأنَّه مَن

---

(١) أخرجَهُ البُخارِيُّ (٧٠)؛ ومُسلِمٌ (٢٨٢١).

(٢) أخرجَهُ الطَّبرانيُّ في «الأوسط» (٤٤٢٤)؛ ولفظُه: قالَ ابنُ عُمَرَ: أتَىٰ رجلٌ النَّبيَّ ﷺ؛ =

استشعرَ أنَّه مُوَدِّعٌ بصلاتِهِ؛ أتقنَها علَىٰ أكملِ وُجُوهِهَا. ولرُبَّما كانَ قدْ وقعَ مِنهُ ﷺ تعريضٌ في تلكَ الخُطبَةِ بالتَّوديعِ؛ كمَا عرَّضَ بذلكَ في خُطْبَتِهِ في حَجَّةِ الوَدَاعِ.



• وقولُهم: «**فأَوْصِنَا**»:

يعنونَ: وصيَّةً جامعةً كافيةً؛ فإنَّهم لمَّا فهمُوا أنَّه مُوَدِّعٌ؛ استَوصَوهُ وصيَّةً ينفعُهُم التَّمسُّكُ بِهَا بعدَه، ويكونُ فِيها كفايةً لمَن تمسَّكَ بِهَا، وسعادةً في الدُّنيا والآخرَةِ.



• قولُه ﷺ: «**أُوصِيكمُ بتَقْوَىٰ اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعةِ**»:

هاتانِ الكلمتان؛ تجمعانِ سعادةَ الدُّنيا والآخرَةِ:

أمَّا التَّقوَىٰ فهِيَ كافلةٌ بسعادَةِ الآخرَةِ، وأمَّا السَّمعُ والطَّاعةُ لوُلاةِ أمورِ المسلمينَ: ففِيها سعادةُ الدُّنيا، وبِها تنتظمُ مصالحُ العبادِ في معايشِهِم، وبِها يستعينونَ علَىٰ إظهارِ دِينهِم، وطاعةِ ربِّهم.



• قولُه ﷺ: «**وإنْ تأمَّرَ عليكُم عَبْدٌ**»، وفي رِوايةٍ: «**حَبَشيٌّ**»:

هذَا ممَّا تكاثرتْ بِهِ الرِّواياتُ عَن النَّبيِّ ﷺ؛ وهُوَ ممَّا أطْلَعَ اللهُ عليهِ النَّبيَّ ﷺ مِن أمرِ أُمَّتِهِ، وولايةِ العبيدِ عليهِم.

= فقال: يَا رَسُولَ اللهِ؛ حدِّثِني بحديثٍ، واجْعَلْهُ موجزاً؛ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**صلِّ صلاةَ مُوَدِّعٍ؛ فإنَّكَ إنْ كنتَ لَا تراهُ؛ فإنَّه يراكَ، وايأسْ ممَّا في أيدِي النَّاسِ؛ تَكُنْ غنيًّا، وإيَّاكَ ومَا يُعتذَرُ مِنهُ**». الحديثُ ذكرَهُ الشَّيخُ الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة»؛ وقالَ: «إنَّ الحديثَ حَسَنٌ عِندِي، أَو صحيحٌ؛ فإنَّ لَهُ شواهدَ تقوِّيهِ». انظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٩١٤).

وفي «صَحيح البُخَارِيِّ»، عَن أنسٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**اسْمَعُوا وأَطِيعُوا، وإنِ استُعملَ عليكُم عبدٌ حَبَشيٌّ؛ كأنَّ رأسَهُ زبيبةٌ!**»(١).

وفي «صَحيح مُسلِم»، عَن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قالَ: «**إنَّ خليلِي ﷺ أَوصانِي: أَن أسمعَ وأُطِيعَ، ولَو كانَ عَبْداً حبشيّاً؛ مُجَدَّعَ الأطرافِ!**»(٢).

والأحاديثُ في هذَا المعنَىٰ كثيرةٌ جدّاً.

* قولُه ﷺ: «**فعَلَيكُم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشِدِينَ مِن بَعدِي**»:

(السُّنَّةُ): هِيَ الطَّريقةُ المسلوكةُ؛ فيشمَلُ ذلكَ: التَّمسُّكُ بمَا كانَ عليهِ هُوَ وخُلفاؤُهُ الرَّاشدون؛ مِن الاعتقاداتِ، والأعمالِ، والأقوالِ.

وهذِهِ هِيَ السُّنَّةُ الكاملُة؛ ولهذَا؛ كانَ السَّلَفُ قديماً لَا يطلقونَ اسمَ (السُّنَّةِ) إلَّا علَىٰ مَا يشملُ ذلكَ كلَّهُ، وكثيرُ مِن العلماءِ المتأخِّرينَ يخصُّ اسمَ (السُّنَّةِ) بمَا يتعلَّقُ بالاعتقاداتِ؛ لأنَّها أصلُ الدِّينِ، والمخالفَ فِيها علَىٰ خطرٍ عظيمٍ(٣).

و**(الخلفاءُ الرَّاشدونَ)** الَّذِينَ أُمِرَ بالاقتداءِ بِهم؛ هُم: أبو بكرٍ، وعُمَرُ، وعُثمانُ، وعليٌّ. وإنَّما وصفَ الخلفاءَ بالرَّاشدينَ؛ لأنَّهم عرفُوا الحقَّ، وقضَوا بهِ؛ فـ(الرَّاشِدُ): ضِدُّ (الغاوِي)؛ و(الغاوِي): مَن عرفَ الحقَّ، وعملَ بخلافِهِ.



* قولُه ﷺ: «**عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ**»:

كنايةٌ عَن شدَّةِ التَّمسُّكِ بِهَا.

و(النَّواجِذُ): الأضراسُ.



(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٧١٤٢). (٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (١٨٣٧).

(٣) ومِن ذلكَ تسميةُ الإمام عَبْدِ اللهِ بنِ أحمدَ كتابَهُ في الاعتقادِ «السُّنَّة»، وكذلكَ الإمامُ ابنُ أبي عاصمٍ، وغيرُهما، وهُوَ مشهورٌ.

• قولُه ﷺ: «وإيَّاكُم ومُحْدثاتِ الأمورِ؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»:

تحذيرٌ للأُمَّةِ مِن اتِّباعِ الأُمُورِ المُحْدَثَةِ المُبْتَدَعَةِ.

والمرادُ بـ(البدعةِ): مَا أُحْدِثَ ممَّا لَا أصلَ لهُ في الشَّريعةِ يدلُّ عليهِ، فأمَّا مَا كانَ لهُ أصلٌ مِن الشَّرْعِ يدلُّ عليهِ؛ فليسَ ببدعةٍ شَرْعاً، وإنْ كانَ بدعةً لُغَةً.

ومَا وقعَ في كلامِ السَّلَفِ مِن استحسانِ بعضِ البِدَعِ؛ فإنَّما ذلكَ في البِدَعِ اللُّغويَّةِ، لَا الشَّرعيَّةِ؛ **فمِن ذلك**:

قولُ عُمَرَ رضي الله عنه، لمَّا جمعَ النَّاسَ في قيامِ رمضانَ علَىٰ إمامٍ واحدٍ في المسجدِ، وخرجَ، ورآهُم يُصلُّون كذلكَ؛ فقالَ: «نِعْمَتِ البِدْعَةُ هذِهِ»[1]، ورُوِيَ أنَّ أُبيَّ بنَ كَعْبٍ قالَ لهُ: إنَّ هذَا لم يكنْ؛ فقالَ عُمَرُ: «قدْ عَلِمْتُ، ولكنَّه حَسَنٌ».

ومُرادُه: أنَّ هذَا الفعلَ لَم يكنْ علَىٰ هذَا الوَجْهِ ـ قبلَ هذَا الوقتِ ـ، ولكنَّ لَهُ أصولاً يرجعُ إليهَا مِن الشَّريعَةِ؛ فمِنهَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يحثُّ علَىٰ قيامِ رَمضانَ، وصلَّىٰ بأصحابِهِ في رَمضانَ غيرَ ليلَةٍ[2]، ثُمَّ امتنعَ؛ معلِّلاً بأنَّه خَشِيَ أَن يُكتَبَ عَلَيْهِم[3]، وهذَا قدْ أُمِنَ بعدَهُ ﷺ.

وقدْ رَوَىٰ الحافظُ أبو نُعَيْم بإسنادِهِ، عَن إبراهيمَ بنِ الجنيدِ، حدَّثنَا حرملةُ بنُ يحيَىٰ، قالَ: سمعتُ الشَّافعيَّ ـ رَحْمَةُ اللهِ عليهِ ـ يقولُ: «البِدْعَةُ بِدْعَتانِ: بِدْعَةٌ محمودَةٌ، وبِدْعَةٌ مذمومة؛ فمَا وافقَ السُّنَّةَ؛ فهُوَ محمودٌ، ومَا خالفَ السُّنَّةَ؛ فهُوَ مذمومٌ»؛ واحتجَّ بقولِ عُمَرَ: «نِعْمَتِ البِدْعَةُ هِيَ».

ومُرادُ الشَّافعيِّ: مَا ذكرنَاهُ قبلُ؛ أنَّ البِدْعَةَ المذمومةَ: مَا ليسَ لَها أصلٌ مِن الشَّريعةِ يُرجَعُ إليهِ ـ وهِيَ: البِدْعَةُ في إطلاقِ الشَّرْعِ ـ، وأمَّا البِدْعَةُ

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٠١٠).
(٢) (غير ليلةٍ)؛ أي: أكثر مِن ليلةٍ.
(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٠١٢).

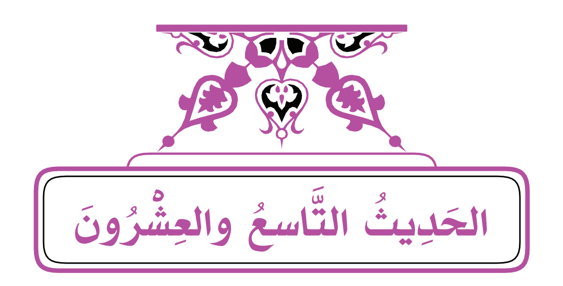
المحمودةُ: فمَا وافقَ السُّنَّةَ؛ يَعنِي: مَا كانَ لَها أصلٌ مِن السُّنَّةِ يُرجَعُ إليهِ، وإنَّما هِيَ بِدْعَةٌ لُغَةً، لَا شَرْعاً؛ لموافقتِهَا السُّنَّةَ[١].

وقدْ رُوِيَ عَن الشَّافعيِّ كلامٌ آخرُ؛ يفسِّرُ هذَا؛ وأنَّه قالَ: «والمُحدَثاتُ ضَربانِ: مَا أُحْدِثَ ممَّا يخالفُ كتاباً، أَو سُنَّةً، أَو أثراً، أَو إجماعاً؛ فهذِهِ البِدْعَةُ الضَّلالُ، ومَا أُحْدِثَ مِن الخيرِ، لَا خلافَ فيهِ لواحدٍ مِن هذَا؛ وهذِهِ مُحْدَثَةٌ غيرُ مذمومةٍ».



(١) قولُ الشَّافعيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «البِدْعَةُ بِدْعَتانِ: محمودَةٌ، ومذمومةٌ...»؛ مِمَّا فُهِمَ علَىٰ غيرِ وَجْهِهِ، واستندَ إليهِ بعضُ أهلِ البِدَعِ لتحسينِ بِدَعِهِم؛ فإذَا قيلَ لأحدِهِم: لَا تبتدعْ في دينِ اللهِ؛ قالَ: هذِهِ بِدْعَةٌ حسنةٌ، أَو بِدْعَةٌ محمودَةٌ! وقدِ استملَيتُ شيخَنَا العلَّامَةَ المُحقِّقَ الشَّيخَ عَبْدَ الرَّحمٰنِ بنَ ناصر البرَّاك؛ مَا نَصُّهُ: «هذَا القولُ مِن الشَّافِعيِّ رَحِمَهُ اللهُ مِن الكلام المُتشابِهِ، الَّذي يمكنُ أن يتعلَّقَ بِهِ أهلُ البِدَعِ المُضِلَّةِ، ولَا مُتعلَّقَ لَهم فيهِ؛ فإنَّ آخرَ كلامِهِ رَحِمَهُ اللهُ يبيِّنُ مُرادَهُ؛ وهُوَ قولُه: «فمَا وافقَ السُّنَّة؛ فهُوَ محمودٌ، ومَا خالفَهَا؛ فهُوَ مذمومٌ»، وكذلكَ استشهادُهُ بقولِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في جَمْعِ النَّاسِ علَىٰ إمامٍ واحدٍ في قيامِ رَمضانَ: «نِعْمَتِ البِدْعَةُ»؛ يدلُّ علَىٰ أنَّ مَا سَمَّاهُ رَحِمَهُ اللهُ (بِدْعَةً محمودةً) إنَّما أرادَ المعنَىٰ اللُّغويَّ؛ لأنَّ مَا وافقَ السُّنَّةَ وأصولَ الشَّريعَةِ، وقدْ أُحدثَ لحدوثِ مُقتَضيهِ؛ هُوَ مِن الدِّينِ، والبِدْعَةُ مَا أُحْدِثَ في الدِّين، مِمَّا ليسَ مِنهُ؛ علَىٰ حدِّ قولِهِ ﷺ: «**مَن أحدثَ في أمرِنَا هذَا مَا ليسَ مِنهُ؛ فهُوَ رَدٌّ**».

وعلَىٰ هذَا؛ فلَا ينبَغِي تقسيمُ المُحْدَثاتِ إلَى محمودٍ ومذموم ـ وإنْ صَحَّ مُرادُ مَن قالَ بذلكَ ـ؛ لأنَّ ظاهرَ هذَا يصادمُ قولَهُ ﷺ: «**وشرُّ الأمورِ محدثاتُها**»، «**وكلُّ بدعةٍ ضلالَةٌ**»، ولأنَّه يصيرُ ذريعةً للجُهَّالِ وأهلِ الأهواءِ في تسويغِ مَا ابتدَعُوهُ ـ بمحضِ استحسانِهِم ـ، واتَّخذُوه دِيناً؛ وهُوَ مِن الدِّينِ الَّذي لَم يأذَنْ بهِ اللهُ؛ انتهَىٰ كلامُهُ ـ وَفَّقَهُ اللهُ ـ، وقدْ أحسنَ مَا شادَ، وأجادَ وزادَ؛ جزاهُ اللهُ عنَّا خيراً.



الحَدِيثُ التَّاسعُ والعِشْرُونَ

عن مُعَاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، ويُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ.

قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ؛ وإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ؛ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومُ رَمَضَانَ، وتَحُجُّ البَيْتَ».

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةُ؛ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ، وعَمُودِهِ، وذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟».

قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ: الإِسْلَامُ، وعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ».

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟».

قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ؛ وقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا».

قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ وإنَّا لمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟!

فقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ـ أَوْ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ ـ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وقالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

الشَّرْحُ

• قولُه ﷺ: **«أَلَا أَدُلُّكَ علَىٰ أبوابِ الخيرِ؟»:**

لمَّا رَتَّبَ دخولَ الجنَّةِ علَىٰ واجباتِ الإسلامِ؛ دلَّهُ ـ بعدَ ذلكَ ـ علَّىٰ أبوابِ الخيرِ مِن النَّوافِلِ؛ فإنَّ أفضلَ أولياءِ اللهِ هُمُ المُقرَّبُونَ؛ الَّذِينَ يتقرَّبونَ إليهِ بالنَّوافلِ، بعدَ الفرائِضِ.

• وقولُه ﷺ: **«الصَّومُ جُنَّةٌ»:**

(الجُنَّةُ): هِيَ مَا يستجنُّ بِهَا العبدُ؛ كالمِجَنِّ الَّذِي يقيهِ عندَ القتالِ مِن الضَّربِ؛ فكذلكَ الصِّيامُ؛ يَقِي صاحبَهُ مِن المعاصِي في الدُّنيا؛ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة]؛ فإذَا كانَ لهُ جُنَّةً مِن المعاصِي؛ كانَ لهُ جُنَّةً في الآخرةِ مِن النَّارِ.

• قولُه ﷺ: **«والصَّدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ؛ كمَا يُطفِئُ الماءُ النَّارَ، وصلاةُ الرَّجُلِ في جَوْفِ اللَّيْلِ»:**

يَعْنِي: أنَّها تُطفِئُ الخطيئةَ أيضاً كالصَّدَقةِ؛ ويدلُّ علَىٰ ذلكَ: مَا أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ، مِن روايةِ عُروةَ بنِ النَّزَّالِ، عَن مُعاذٍ، قالَ: أقبلنَا معَ النَّبيِّ ﷺ مِن غزوةِ تبوكٍ...؛ فذكرَ الحديثَ، وفيهِ: «**الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ، وقيامُ العبدِ**

في جَوْفِ اللَّيْلِ يكفِّرُ الخطيئةَ»[١].

وفي التِّرمِذيِّ، مِن حديثِ بلالٍ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**عَلَيكُم بقيامِ اللَّيْلِ؛ فإنَّه دَأْبُ الصَّالحينَ قبلَكُم، وإنَّ قيامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إلَىٰ اللهِ ﷻ، ومنهاةٌ عَن الإثمِ، وتكفيرٌ للسَّيِّئاتِ، ومطردةٌ للدَّاءِ عَن الجَسَدِ**».

وخرَّجَهُ، مِن حديثِ أبي أُمامةَ ـ بنَحْوِهِ ـ، وقالَ: «هُوَ أصحُّ مِن حديثِ بلالٍ»[٢].

وقد تقدَّمَ: أنَّ صدقةَ السِّرِّ تُطفِئُ الخطيئةَ، وتُطفِئُ غضبَ الرَّبِّ؛ فكذلكَ صلاةُ اللَّيْلِ.

• وقولُه: «ثُمَّ تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]:

يَعنِي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ تَلا هاتَيْنِ الآيتَيْنِ؛ عِندَ ذكرِهِ فضلَ صلاةِ اللَّيْلِ؛ ليبيِّنَ بذلكَ فضلَ صلاةِ اللَّيْلِ.



---

(١) وقدْ بيَّنَ المؤلِّفُ ـ أثناءَ ذِكرِهِ لِرواياتِ الحديثِ ـ: أنَّ عروةَ بنَ النَّزَّالِ لَم يسمعْ مِن مُعاذٍ رضي الله عنه.

(٢) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٣٥٤٩)، وقالَ: «حديثٌ غريبٌ، لَا نعرفُه مِن حديثِ بلالٍ إلَّا مِن هذَا الوجه»، ثُمَّ ساقَ كلاماً يدلُّ علَىٰ أنَّ الحديثَ عِندَهُ ضعيفٌ جِدًّا، ثُمَّ ساقَ حديثَ أبي أمامةَ، أنَّه ﷺ قالَ: «**عليكُم بقيامِ اللَّيلِ؛ فإنَّه دأبُ الصَّالحينَ قبلَكم، وهُوَ قربةٌ إلَىٰ ربِّكم، ومكفرةٌ للسَّيِّئاتِ، ومنهاةٌ لِلإثم**»، ثُمَّ قالَ: «قالَ أبو عِيسَىٰ ـ يَعنِي: نفسه (رَحِمَهُ اللهُ) ـ: «وهذَا أصحُّ مِن حديثِ إدريسَ، عَن بلالٍ».

قلتُ: وقد تابَعَهُ الشَّيخُ الألبانيُّ علَىٰ ذلكَ؛ فقالَ عَنِ حديثِ بلالٍ: إنَّه «ضعيفٌ جِداً»؛ انظر: «ضعيف التَّرغيب» (٣٥٧)، وقالَ عن حديثِ أبي أمامةَ: إنَّه «حَسَنٌ لغيرِهِ»؛ انظر: «الصَّحيحة» (٦٢٤).

ومُلخصُ مَا ذكرنَا أنَّ الحديثَ ثابتٌ مِن روايةِ أبي أمامةَ، وليسَ فِيهَا: «**ومطردة للدَّاءِ عَن الجسدِ**».

• وقولُه ﷺ: «**وصلاةُ الرَّجُلِ مِن جَوْفِ اللَّيْلِ**»:

ذكرَ أفضلَ أوقاتِ التَّهجُّدِ باللَّيلِ؛ وهُوَ: جوفُ اللَّيْلِ.

وقدْ قيلَ: إنَّ جوفَ اللَّيْلِ إذَا أُطْلِقَ؛ فالمرادُ بهِ: وسطُهُ، وإن قيلَ: جوفُ اللَّيْلِ الآخر؛ فالمرادُ: وسطُ النِّصْفِ الثَّانِي؛ وهُوَ: السُّدسُ الخامِسُ مِن أَسداسِ اللَّيْلِ، وهُوَ الوقتُ الَّذِي وردَ فيهِ النُّزولُ الإلهيُّ.

• قولُه ﷺ: «**ألَا أُخبرُكَ برَأْسِ الأمرِ، وعَمُودِهِ، وذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟**»؛ قُلْتُ: بلَىٰ يَا رَسُولِ اللهِ؛ قالَ: «**رَأْسُ الأمرِ: الإسلامُ، وعمودُهُ: الصَّلاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ**»:

أخبرَ النَّبيُّ ﷺ عَن ثلاثةِ أشياءَ: رأسِ الأمرِ، وعمودِهِ، وذِرْوَةِ سَنَامِهِ:

يعنِي بـ(الأمرِ): الدِّينَ؛ وقدْ جاءَ تفسيرُهُ ـ في الرِّوايَةِ الأُخرَىٰ ـ بـ: الشَّهادَتَيْنِ؛ فمَن لَم يُقِرَّ بِهما ظاهراً وباطناً؛ فليسَ مِن الإسلامِ في شيْءٍ.

وأمَّا قوامُ الدِّينِ؛ فهُوَ: الصَّلاةُ؛ يقومُ بِهِ الدِّينُ؛ كمَا يقومُ الفُسْطَاطُ علَىٰ عَمُودِهِ.

وأمَّا ذِرْوَةُ سَنَامِهِ ـ وهُوَ أعلَىٰ مَا فيهِ وأرفَعُهُ ـ فهُوَ: الجِهَادُ؛ وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّه أفضلُ الأعمالِ بعدَ الفرائضِ؛ كمَا هُوَ قولُ الإمامِ أحمدَ وغيرِهِ مِن العلماءِ.

• قولُه ﷺ: «**ألَا أُخبرُكَ بمِلاكِ ذلكَ كلِّه**»؛ قلتُ: بلىٰ؛ قالَ: «**كُفَّ عليكَ هذَا**»:

هذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ كفَّ اللِّسانِ، وضبطَهُ، وحبسَهُ، هُوَ أصلُ الخيرِ كلِّهِ، وأنَّ مَن مَلَكَ لِسانَهُ؛ فقدْ مَلَكَ أمرَهُ، وأحكمَهُ، وضبطَهُ.

والمُرادُ بـ(حصائِدِ الألسنَةِ): جزاءُ الكلامِ المُحَرَّمِ، وعقوباتُهُ؛ فإنَّ

الإنسانَ يزرعُ بقولِهِ وعملِهِ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، ثُمَّ يحصدُ يومَ القيامةِ مَا زرعَ، فمَن زرعَ خيراً؛ حصدَ الكرامَةَ، ومَن زرعَ شرّاً؛ حصدَ النَّدامَةَ!

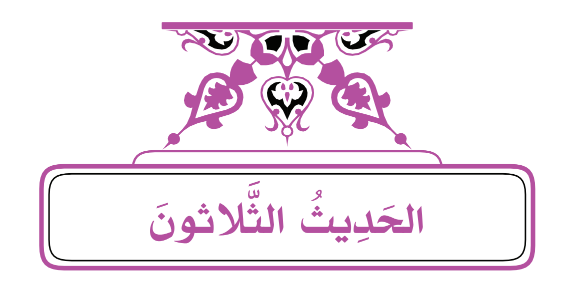
ورَوَىٰ مالكٌ، عَن زيدِ بنِ أسلمَ، عَن أبيهِ، أنَّ عُمَرَ ﷺ دخلَ علَىٰ أبي بكرٍ ﷺ، وهُوَ يجبذُ لسانَهُ؛ فقالَ عُمَرُ: «مَهْ؛ غَفَرَ اللهَ لكَ»! فقالَ أبو بكرٍ: هذَا أوردَنِي الموارِدَ»!

وكانَ ابنُ مسعودٍ يحلفُ باللهِ الَّذِي لَا إلٰهَ إلَّا هُوَ: «مَا علَىٰ الأرضِ شيءٌ أحوجُ إلَىٰ طولِ سِجْنٍ مِن لِسَانٍ»!

وقالَ يونُسُ بنُ عبيدٍ: «مَا رأيتُ أحداً لسانُه مِنهُ علَىٰ بالٍ؛ إلَّا رأيتُ ذلكَ صلاحاً في سائِرِ عملِهِ»[١].



(١) مَن أرادَ التَّوسُّعَ فيمَا يتعلَّقُ باللِّسانِ؛ فلْيرجعْ إلَىٰ شرحِ الحديثِ الخامسِ عشرَ مِن هذَا الكتابِ.



الحَدِيثُ الثَّلاثونَ

عن أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ؛ فلَا تُضَيِّعُوهَا، وحَدَّ حُدُوداً؛ فلَا تَعْتَدُوهَا، وحَرَّمَ أَشْيَاءَ؛ فلَا تَنْتَهِكُوهَا، وسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ؛ رَحْمَةً لَكُمْ، غَيْرَ نِسْيَانٍ؛ فلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وغَيْرُهُ.

الشَّرح

قالَ أبو بكرٍ ابنُ السَّمعانيِّ: «هذَا الحديثُ أصلٌ كبيرٌ مِن أصولِ الدِّينِ»؛ قالَ: «فمَن عَمِلَ بهذَا الحديثِ؛ فقدْ حازَ الثَّوابَ، وأَمِنَ العِقَابَ؛ لأنَّ مَن أدَّىٰ الفرائِضَ، واجتنبَ المحارِمَ، ووقفَ عِندَ الحُدُودِ، وتركَ البحثَ عمَّا غابَ عَنهُ؛ فقدِ استوفَىٰ أقسامَ الفَضْلِ، وأوفَىٰ حقوقَ الدِّينِ؛ لأنَّ الشَّرائِعَ لَا تخرجُ عَن هذِهِ الأنواعِ المذكورَةِ في هذَا الحديثِ». انتهَىٰ.

فأمَّا الفرائِضُ: فمَا فرضَهُ اللهُ علَىٰ عبادِهِ، وألزَمَهُم القيامَ بِهِ؛ كالصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصِّيامِ، والحَجِّ.

وأمَّا المحارِمُ: فهِيَ الَّتِي حماهَا اللهُ تعالَىٰ، ومنعَ مِن قُربانِها وارتكابِها وانتهاكِهَا.

وأمَّا حُدُودُ اللهِ الَّتِي نَهىٰ عَن اعتدائِهَا؛ فالمرادُ بهَا جملةً: مَا أذنَ في فعلِهِ، سواءً كانَ علَىٰ طريقِ الوجوبِ، أَو النَّدبِ، أو الإباحةِ.

واعتداؤُهَا: هُوَ تجاوُزُ ذلكَ إلَىٰ ارتكابِ مَا نَهىٰ عنهُ.

وقد تُطلَقُ (الحدودُ)، ويُرادُ بِهَا: نفسُ المحارِمِ؛ وحينَئذٍ؛ فيُقالُ: لَا تقرَبُوا حُدودَ اللهِ؛ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقد تُسَمَّىٰ العُقُوباتُ المُقدَّرَةُ، الرَّادِعَةُ عَن المحارِمِ المغلَّظَةِ؛ حُدُوداً؛ كمَا يُقالُ: حدُّ الزِّنَىٰ، وحدُّ السَّرِقَةِ، وحدُّ شُرْبِ الخَمْرِ. وهذَا هُوَ المعروفُ مِن اسْمِ الحدودِ في اصْطِلَاحِ الفُقَهَاءِ.

وأمَّا المسكوتُ عَنهُ: فهُوَ مَا لَم يذكرْ حُكْمُه بتحليلٍ، ولَا إيجابٍ، ولَا تحريمٍ؛ فيكونُ معفوّاً عنهُ؛ لَا حرجَ علَىٰ فاعِلِهِ.



• قولُه ﷺ: «**فلَا تبحثُوا عنهَا**»:

وممَّا يدخلُ في النَّهْيِ عَن البَحْثِ عَنهُ: أمورُ الغَيْبِ الخبريَّةُ؛ الَّتِي أمرَ بالإيمانِ بِهَا، ولَم يبيِّن كيفيَّتِهَا؛ فالبحثُ عَن ذلكَ ممَّا يُنهَىٰ عَنهُ، وقدْ يوجبُ الحيرةَ والشَّكَّ، ويرْتَقِي إلَىٰ التَّكذيبِ!

وفي «صَحيح مُسلِم»، عَن أبي هُرَيرةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**لَا يزالُ النَّاسُ يسألونَ؛ حتَّىٰ يُقالَ: هذَا اللهُ؛ خلقَ الخَلْقَ؛ فمَنْ خَلَقَ اللهَ؟! فمَن وَجَدَ مِن ذلكَ شَيئاً؛ فلْيَقُلْ: آمنتُ باللهِ**»[1].

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (١٣٤). وهذِهِ إحْدَىٰ الصِّيغُ الَّتِي ينبَغِي علَىٰ المُسلِمِ أَن يقولَها؛ متَىٰ وجدَ شيئاً مِن الشَّيطانِ.
وأنَا أُلَخِّصُ بعضَ مَا ينبَغِي للمُسلِمِ أَن يقولَهُ ويفعلُهُ ـ كمَا جاءَ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ ـ؛ فمِن ذلكَ:
١ ـ آمنتُ باللهِ.
٢ ـ آمنتُ باللهِ ورَسُولِهِ ـ كمَا في الرِّوايةِ الأُخرَىٰ عِندَ «مُسلِم» ـ.
٣ ـ الاستعاذةُ باللهِ، ثُمَّ الانتهاءُ عَن التَّمادِي في ذلكَ التَّفكيرِ.
٤ ـ صَدَقَ اللهُ ورَسُولُه.
٥ ـ (اللهُ أحد، اللهُ الصَّمَد، لَم يَلِدْ ولَم يُولَدْ ولَم يكُن لَهُ كفواً أحد)، ثُمَّ يتفُلْ عَن يسارِهِ ـ ثلاثاً ـ، ويستعيذُ مِن الشَّيطانِ ـ وهذَا أخرجَهُ أبو داودَ، بسندٍ حَسَنٍ ـ.

قالَ إسحاقُ بنُ راهويهِ: «لَا يجوزُ التَّفكُّرُ في الخالِقِ، ويجوزُ للعبادِ أَن يتفكَّرُوا في المخلوقينَ بمَا سَمِعُوا فِيهِم، ولَا يزيدونَ علَىٰ ذلكَ؛ لأنَّهم إنْ فعلُوا تَاهُوا».

قالَ: «وقدْ قالَ اللهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ فلَا يجوزُ أَن يُقالَ: كيفَ تُسبِّحُ القِصَاعُ والخبزُ والثِّيابُ؟! وكلُّ هذَا قدْ صَحَّ العِلْمُ فيهِ أنَّهم يُسَبِّحونَ؛ فذلكَ إلَىٰ اللهِ؛ أَن يجعلَ تسبيحَهُم كيفَ شاءَ، وكمَا يشاءُ، وليسَ للنَّاسِ أَن يخوضُوا في ذلكَ إلَّا بمَا عَلِمُوا، ولَا يتكلَّموا في هذَا وشبَهِهِ - إلَّا بمَا أخبرَ اللهُ -، ولَا يزيدُوا علَىٰ ذلكَ؛ فاتَّقُوا اللهَ، ولَا تخوضُوا في هذِهِ الأشياءِ المُتشابِهَةِ؛ فإنَّه يُرْدِيكُم الخوضُ فيهِ عَن سننِ الحَقِّ».

نقلَ ذلكَ كلَّهُ: حَرْبٌ، عَن إسحاقَ - رَحِمَهُما اللهُ -[1].

---

(١) وللعلَّامةِ الشَّيخِ محمَّدِ بنِ صالحِ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فتوَىٰ عظيمةُ النَّفعِ؛ لمَن وقعَ في قلبِهِ شيءٌ مِن الشُّكوكِ والوَساوِسِ.

* **سُئِلَ الشَّيخُ عَن رَجُلٍ يوسوسُ لهُ الشَّيطانُ بوَساوسَ عظيمةٍ، فيمَا يتعلَّقُ باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وهُوَ خائفٌ مِن ذلكَ جدًّا.**

* **فأجابَ** رَحِمَهُ اللهُ **بقولِهِ**: «مَا ذُكر مِن جهةِ مُشكلةِ السَّائلِ الَّتِي يخافُ مِن نتائجِهَا؛ أقولُ لهُ: أبشرْ بأنَّه لَن يكونَ لَها نتائجُ إلَّا النَّتائج الطَّيِّبة؛ لأنَّ هذِهِ وَساوسُ يصولُ بِهَا الشَّيطانُ علَىٰ المؤمنينَ؛ ليزعزعَ العقيدةَ السَّليمةَ في قلوبِهِم، ويوقعَهم في القلقِ النَّفسيِّ والفكريِّ؛ ليكدِّرَ عليهِم صفوَ الإيمانِ! وليستْ حالهُ بأوَّلِ حالٍ تعرضُ لأهلِ الإيمانِ، ولَا هِيَ آخر حالٍ! ولقدْ كانَتْ هذِهِ الحالُ تعرضُ للصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم؛ فعَن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قالَ: جاءَ أناسٌ مِن أصحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فسأَلُوهُ: إنَّا نجدُ في أنفسِنَا مَا يتعاظمُ أحدُنا أَن يتكلَّمَ بهِ! فقالَ ﷺ: «**أَوَقدْ وجدتموهُ؟**»؛ قالُوا: نَعَمْ؛ قالَ: «**ذاكَ صريحُ الإيمانِ**»! رَوَاهُ مُسلِمٌ.

وفي «الصَّحيحينِ»، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**يأتِي الشَّيطانُ أحدَكُم؛ فيقولُ: مَن خلقَ كذَا؟ من خلقَ كذَا؟ حتَّىٰ يقولَ: مَن خلقَ رَبَّكَ؟ فإذَا بلغَهُ؛ فلْيستَعِذْ باللهِ، ولينتَهِ**».

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما، أنَّ النَّبيَّ ﷺ جاءَهُ رجلٌ؛ فقالَ: إنِّي أحدِّثُ نَفْسِي بالشَّيْءِ؛ لأَن أكونَ حممةً أحبُّ إليَّ مِن أن أتكلَّمَ بهِ! فقالَ ﷺ: «**الحمدُ للهِ الَّذِي ردَّ أمرَهُ إلَىٰ الوَسوسةِ**». رَوَاهُ أبو داودَ. =

= فأقولُ لهذَا السَّائلِ: إذَا تبيَّنَ لكَ أنَّ هذِهِ الوَساوِسَ مِن الشَّيطانِ؛ فجَاهِدْهَا وكَابِدْها، واعْلَمْ أنَّها لَن تضرَّكَ أبداً، معَ قيامِكَ بواجبِ المجاهدَةِ، والإعراضِ عَنهَا، والانتهاءِ عَن الانسيابِ وراءَها؛ كمَا قالَ ﷺ: «**إنَّ اللهَ تجاوَزَ عَن أُمَّتِي مَا وَسوسَتْ بِهِ صدورُها، مَا لَم تعمَلْ بهِ، أَو تتكلَّمَ**»، متَّفقٌ عليهِ. وأنتَ لَو قيلَ لكَ: هَلْ تعتقدُ مَا توسوسُ، وهَلْ تراهُ حقًّا؟ وهَلْ يمكنُ أَن تصفَ اللهَ ـ سُبحانَهُ ـ به؟ لقلتَ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور]! ولأنكرتَ ذلكَ بقلبِكَ ولسانِكَ، وكنتَ أبعدَ النَّاسِ نفوراً عَنهُ؛ إذَنْ؛ فهُوَ مجرَّدُ وَساوسَ وخطراتٍ؛ تعرضُ لقلبِكَ مِن الشَّيطانِ؛ ليرديكَ، ويلبسَ عليكَ دِينَك. ولذلكَ؛ تجدُ الأشياءَ التَّافهةَ لَا يُلقِي الشَّيطانُ في قلبِكَ الشَّكَّ فِيهَا؛ فأنتَ تسمعُ ـ مَثَلاً ـ بوجودِ مُدنٍ كبيرةٍ مملؤةٍ بالسُّكانِ، ولَم يخطرْ ببالِكَ الشَّكُّ في وُجُودِهَا؛ إذْ لَا غرضَ للشَّيطانِ في تشكيكِ الإنسانِ فِيهَا! ولكنَّ الشَّيطانَ لهُ غرضٌ كبيرٌ في إفسادِ إيمانِ المؤمنِ؛ فهُوَ يَسعَىٰ ليطفئَ نورَ العِلْمِ والهدايةِ في قلبِهِ، ويوقعهُ في ظلمةِ الشَّكِّ والحيرَةِ، والنَّبيُّ ﷺ بيَّن لنَا الدَّواءَ النَّاجعَ؛ وهُوَ قولُهُ ﷺ: «**فلْيَستَعِذْ باللهِ، ولينتَهِ**»؛ فإذَا انتهَىٰ الإنسانُ عَن ذلكَ، واستمرَّ في عبادةِ اللهِ؛ طلباً ورغبةً فيمَا عِندَ اللهِ؛ زالَ ذلكَ عَنهُ بحولِ اللهِ.

فأَعْرِضْ عَن جميعِ التَّقديراتِ الَّتِي تَرِدُ علَىٰ قلبِكَ، وهَا أنتَ تعبدُ اللهَ، وتدعوهُ، وتعظِّمُهُ، ولَو سَمِعْتَ أحداً يصفُه بمَا تُوسوسُ بِهِ؛ لقتلتَهُ إنْ أمكنكَ! إذَنْ؛ فمَا تُوسوسُ بِهِ ليسَ حقيقةً واقعةً؛ بلْ هُوَ خواطرُ ووَساوِسُ لَا أصلَ لَها.

ونَصيحَتِي تتلخَّصُ فيمَا يأتِي:

١ ـ الاستعاذةُ باللهِ، والانتهاء بالكليَّةِ عَن هذِهِ التَّقديراتِ؛ كمَا أمرَ بذلكَ النَّبيُّ ﷺ.

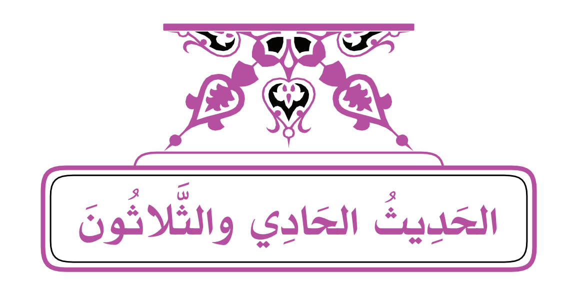
٢ ـ ذِكْرُ اللهِ تعالَىٰ، وضبطُ النَّفسِ عَن الاستمرارِ في هذِهِ الوَساوسِ.

٣ ـ الانهماكُ الجديُّ في العبادةِ والعملِ؛ امتثالاً لأمرِ اللهِ، وابتغاءً لمرضاتِهِ؛ فمتَىٰ التفتَّ إلَىٰ العبادةِ التفاتاً كليًّا، بجدٍّ؛ نسيتَ الاشتغالَ بهذِهِ الوَساوسَ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ.

٤ ـ كثرةُ اللُّجوءِ إلَىٰ اللهِ، والدُّعاءِ بمعافاتِكِ مِن هذَا الأمرِ.

وأسألُ اللهَ لكَ العافيةَ، والسَّلامةَ مِن كلِّ سُوءٍ ومَكروهٍ».

انتهَىٰ كلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ، مِن «مجموع الفتَاوىٰ»، جمع الشَّيخ فَهد السُّليمان (١/٥٧).



الحَدِيثُ الحَادِي والثَّلاثُونَ

عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؛ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ دُلَّنِي عَلَىٰ عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ؛ أَحَبَّنِي اللهُ، وأَحَبَّنِي النَّاسُ.

فقَالَ: «ازْهَدْ في الدُّنْيَا؛ يُحبُّكَ اللهُ، وازْهَدْ فِيمَا في أَيْدِي النَّاسِ؛ يُحبُّكَ النَّاسُ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وغَيْرُه، بِأَسَانِيدَ حَسَنَةٍ.



اشتملَ هذَا الحديثُ علَىٰ وَصيَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ:

إِحْدَاهما: الزُّهد في الدُّنيا؛ وأنَّه مُقْتَضٍ لمحبَّةِ اللهِ ﷻ.

والثَّانية: الزُّهد فِيمَا في أَيدِي النَّاسِ؛ وأنَّه مُقْتَضٍ لمحبَّةِ النَّاسِ[1].

فأمَّا الزُّهْدُ في الدُّنيا:

فقدْ كَثُرَ في القرآنِ الإشارةُ إِلَىٰ مدحِهِ، وإِلَىٰ ذَمِّ الرَّغبَةِ في الدُّنيا؛ قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى]، وقال ـ تعالَىٰ ـ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقالَ ـ في قِصَّةِ قارونَ ـ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ

(١) والزهد فيما في أيدي الناس، داخل في عموم الزهد في الدنيا، فالزهد فيها موجب لمحبة الله ومحبة الناس. (الشيخ عبد العزيز الطريفي).

لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص]، وقال - تعالَىٰ -: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد]، وقال - تعالَىٰ -: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء].

وقالَ، حاكياً عَن مؤمنِ آلِ فِرْعونَ أنَّه قالَ لقومِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر].

وقدْ ذَمَّ اللهُ ﷻ مَن كانَ يريدُ الدُّنيا بعملِهِ وسعيِهِ ونيَّتِهِ، وقدْ سبقَ ذِكْرُ ذلكَ في الكلامِ علَىٰ حديثِ: «**الأعمال بالنِّيَّاتِ**».

والأحاديثُ في ذمِّ الدُّنيا وحقارَتِها عِندَ اللهِ كثيرةٌ جدّاً:

ففِي «صَحيح مُسلِم»، عَن جابرٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ مَرَّ بالسُّوقِ والنَّاسُ كَنَفَيْهِ؛ فمَرَّ بجدي أسكَّ ميِّتٍ؛ فتناوَلَهُ؛ فأخذَ بأُذُنِهِ؛ فقالَ: «**أيُّكم يحبُّ أنَّ هذَا لهُ بدِرْهَم؟!**»؛ فقالُوا: مَا نحبُّ أنَّه لنَا بشيْءٍ! ومَا نصنَعُ بهِ؟! قالَ: «**أتحبُّونَ أنَّه لكُم؟**»؛ قالُوا: واللهِ؛ لَو كانَ حيّاً كانَ عيباً فيهِ؛ لأنَّه أسكُّ؛ فكيفَ وهُوَ ميِّتٌ؟! فقالَ: «**واللهِ؛ للدُّنيا أهونُ علَىٰ اللهِ مِن هذَا عَليكُم**»[1].

وفيهِ أيضاً، عَن المستوردِ الفهريِّ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَا الدُّنيَا في الآخرَةِ؛ إلَّا كمَا يجعلُ أحدُكُم أصبعَهُ في اليمِّ؛ فلْينظرْ بماذَا ترجعُ؟!**»[2].

ومعنَىٰ الزُّهْدِ في الشَّيْءِ: الإعراضُ عنهُ؛ لاستقلالِهِ، واحتقارِهِ، وارتفاعِ الهمَّةِ عنهُ؛ يُقالُ: (شيْءٌ زهيدٌ)؛ أَي: قليلٌ حقيرٌ.

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٢٩٥٧).
(٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٢٨٥٨).

وقد تكلَّمَ السَّلَفُ ـ ومَن بعدَهم ـ في تفسيرِ الزُّهْدِ في الدُّنيا، وتنوَّعَتْ عبارَاتُهم عنهُ:

رَوَىٰ الإمامُ أحمدُ في كتابِ «الزُّهد»، قالَ: قالَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ: «ليسَ الزَّهادةُ في الدُّنيا بتحريمِ الحلالِ، ولَا إضاعةِ المالِ؛ وإنَّما الزَّهادةُ في الدُّنيا: أَن تكونَ بمَا في يدِ اللهِ أوثقَ ممَّا في يدَيْكَ، وإذَا أُصِبْتَ بمصيبَةٍ؛ كنتَ أشدَّ رجاءً لأجرِهَا وذخرِهَا؛ مِن إيَّاها لَو بَقِيَتْ لكَ».

وخرَّجَهُ ابنُ أبي الدُّنيا، عَن يونسَ بنِ ميسرةَ، قالَ: «ليسَ الزَّهادةُ في الدُّنيا بتحريمِ الحلالِ، ولَا بإضاعةِ المالِ؛ ولكنَّ الزَّهادةَ في الدُّنيا: أَن تكونَ بمَا في يدِ اللهِ أوثقَ مِنكَ بمَا في يدِكَ، وأَن يكونَ حالُكَ في المصيبَةِ وحالُكَ إذَا لَم تُصَبْ بِهَا سواءً، وأَن يكونَ مادِحُكَ وذَامُّكَ ـ في الحقِّ ـ سواءً».

ففسَّرَ الزُّهْدَ في الدُّنيا بثلاثةِ أشياءَ؛ كلِّها مِن أعمالِ القلوبِ، لَا مِن أعمالِ الجوارحِ:

أَحدها: أَن يكونَ العبدُ بمَا في يدِ اللهِ؛ أوثقَ مِنهُ بمَا في يدِ نفسِهِ؛ وهذَا ينشأُ مِن صِحَّةِ اليقينِ وقوَّتِهِ؛ فإنَّ اللهَ ضمنَ أرزاقَ عبادِهِ، وتكفَّلَ بِهَا؛ كمَا قالَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

فمَن حقَّقَ اليقينَ؛ وثقَ باللهِ في أمورِهِ كلِّها، ورَضِيَ بتدبيرِهِ لَهُ، وانقطعَ عَن التَّعلُّقِ بالمخلوقينَ رجاءً وخوفاً، ومنعَهُ ذلكَ مِن طلبِ الدُّنيا بالأسبابِ المكروهةِ، ومَن كانَ كذلكَ؛ كانَ زاهداً في الدُّنيا حقيقةً، وكانَ مِن أغنَىٰ النَّاسِ وإنْ لَم يكن لهُ شيْءٌ مِن الدُّنيا!

والثَّاني: أَن يكونَ العبدُ إذَا أُصِيبَ بمصيبَةٍ في دُنياهُ؛ مِن ذهابِ مالٍ، أَو ولدٍ، أَو غيرِ ذلكَ أرغبَ في ثوابِ ذلَك؛ ممَّا ذهبَ مِنهُ مِن الدُّنيا أَن يبقَىٰ لهُ؛ وهذَا أيضاً ينشأُ مِن كمالِ اليَقينِ.

وقدْ رُوِيَ عَن ابنِ عُمَرَ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقولُ في دُعَائِهِ: «**اللَّهُمَّ؛ اقْسِمْ لنَا مِن خشيتِكَ مَا تحولُ بهِ بينَنَا وبينَ معاصيكَ، ومِن طاعتِكَ مَا تبلِّغُنَا بهِ**

جنَّتَك، ومِن اليقينِ مَا تهوِّنُ بِهِ علينَا مصائِبَ الدُّنيا»[(١)].

وهُوَ مِن علاماتِ الزُّهدِ في الدُّنيا، وقلَّةِ الرَّغبَةِ فِيها؛ قالَ عليٌّ رضي الله عنه: «مَن زَهِدَ في الدُّنيا؛ هانَتْ عليهِ المُصيباتُ».

الثَّالث: أَن يستويَ عِندَ العبدِ حامدُه وذامُّه في الحقِّ؛ وهذَا مِن علاماتِ الزُّهدِ في الدُّنيا، واحتقارِهَا، وقلَّةِ الرَّغبةِ فِيها؛ فإنَّ مَن عَظُمَتِ الدُّنيا عِندَه؛ أحبَّ المدحَ وكَرِهَ الذَّمَّ، ومَن استوىٰ عِندَه حامدُه وذامُّه في الحقِّ؛ دلَّ علَىٰ سُقُوطِ منزلةِ المخلوقينَ مِن قلبِهِ، وامتلائِهِ مِن محبَّةِ الحقِّ، ومَا فيهِ رِضَىٰ مولَاهُ.

وقدْ رُوِيَ عَن السَّلَفِ عباراتٌ أُخَرُ في تفسيرِ الزُّهْدِ في الدُّنيا؛ كُلُّها ترجعُ إلَىٰ مَا تقدَّمَ.



• ولْنَرجعْ إلَىٰ شَرْحِ حديثِ: «**ازهدْ في الدُّنيا؛ يحبُّكَ اللهُ**»:

فهذَا الحديثُ يدلُّ علَىٰ أنَّ اللهَ يحبُّ الزَّاهدينَ في الدُّنيا؛ قالَ بعضُ السَّلَفِ: «قالَ الحواريُّونَ لعيسَىٰ عليه السلام: عَلِّمنَا عملاً واحداً يحبُّنَا اللهُ عز وجل عليهِ؛ قالَ: أبغِضُوا الدُّنيا؛ يحبُّكُم اللهُ جل جلاله».

وقدْ ذَمَّ اللهُ تعالَىٰ مَن يحبُّ الدُّنيا، ويؤثِرُهَا علَىٰ الآخرَةِ؛ كمَا قالَ: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة]، وقالَ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر]، وقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات]، والمرادُ: حبُّ المالِ؛ فإذَا ذَمَّ مَن أحبَّ الدُّنيا؛ دلَّ علَىٰ مدحِ مَن لا يحبُّها بل يرفضُهَا ويترُكُها.

قالَ الحسنُ: «مَن أحبَّ الدُّنيا وسَرَّتْهُ؛ خرجَ حُبُّ الآخرَةِ مِن قلبِهِ».

---

(١) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٣٥٠٢)، وقالَ: «هذَا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ»، وحسَّنَه الشَّيخُ الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (١٢٦٨).

وقالَ عونُ بنُ عَبْدِ اللهِ: «الدُّنيا والآخرَةُ في القلبِ ككفَّتِي الميزانِ؛ بقدرِ مَا ترجُح إحدَاهما؛ تخفُّ الأُخرَىٰ»!

وقالَ وهبٌ: «إنَّما الدُّنيا والآخرةُ كرَجُلٍ؛ لهُ امرأتانِ: إنْ أَرضَىٰ إحدَاهُما؛ أسخَطَ الأُخرَىٰ»!

واعلمْ؛ أنَّ الذَّمَّ الواردَ في الكتابِ والسُّنَّةِ للدُّنيا؛ ليسَ هُوَ رَاجِعاً إلَىٰ زمانِها؛ الَّذِي هُوَ اللَّيلُ والنَّهارُ المتعاقبانِ إلَىٰ يومِ القيامَةِ؛ فإنَّ اللهَ جعلَهُما خِلْفةً لمَن أرادَ أَن يذَّكَّرَ أَو أرادَ شُكُوراً.

وليسَ الذَّمُّ راجعاً إلَىٰ مكانِ الدُّنيا؛ الَّذِي هُوَ الأرضُ؛ الَّتِي جعلَهَا اللهُ لبنِي آدمَ مِهاداً وسَكَناً، ولَا إلَىٰ مَا أودعَهُ اللهُ فِيهَا مِن الجبالِ والبحارِ والأنهارِ والمعادنِ، ولَا إلَىٰ مَا أنبتَهُ فِيهَا مِن الشَّجَرِ والزَّرْعِ، ولَا إلَىٰ مَا بثَّ فِيهَا مِن الحيواناتِ وغيرِ ذلكَ؛ فإنَّ ذلكَ كلَّه مِن نِعَمِ اللهِ علَىٰ عبادِهِ؛ بمَا لَهم فيهِ مِن المنافِعِ، ولَهم بهِ مِن الاعتبارِ، والاستدلالِ علَىٰ وحدانيَّةِ صانِعِهِ، وقُدرَتِهِ، وعظمتِهِ.

وإنَّما الذَّمُّ راجعٌ إلَىٰ أفعالِ بنِي آدمَ؛ الواقعةِ في الدُّنيا؛ لأنَّ غالبَها واقعٌ علَىٰ غيرِ الوَجْهِ الَّذِي تُحمَدُ عاقبتُه؛ بلْ يقعُ علَىٰ مَا تضرُّ عاقبتُهُ، أَو لا تنفَعُ؛ كمَا قالَ ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد][1].

وبكلِّ حالٍ؛ فالزُّهدُ في الدُّنيا شعارُ أنبياءِ اللهِ، وأوليائِهِ، وأحبَّائِهِ.

---

(١) ما من حث علىٰ ترك الدنيا في القرآن والسُّنَّة إلا وهو مقترن بالحث علىٰ أمر الآخرة بالنص أو بالتضمُّن، وترك الدنيا مجرداً لم يأت الحث عليه في الشريعة إلا لأجل التفرغ لعمل الآخرة، والعمل للدنيا مع الإكثار من عمل الآخرة غير مذموم. (الشيخ عبد العزيز الطريفي).

الوصيَّةُ الثَّانيةُ: الزُّهدُ فيمَا في أَيْدِي النَّاسِ؛ وأنَّه مُوجِبٌ لمحبَّةِ النَّاسِ:

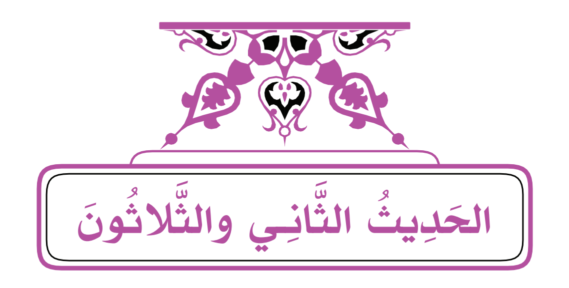
قالَ الحسنُ: «لَا تزالُ كريماً علَىٰ النَّاس ـ أَو: لَا يزالُ النَّاسُ يكرمونَكَ ـ، مَا لَم تعاطَ مَا في أَيدِيهِم؛ فإذَا فعلتَ ذلكَ؛ استخفُّوا بكَ، وكرهُوا حديثَكَ، وأبغضوكَ»!

وقَد تكاثرتِ الأحاديثُ عَن النَّبيِّ ﷺ بـ: الأمرِ بالاستعفافِ عَن مسألةِ النَّاسِ، والاستغناءِ عَنهُم؛ فمَن سألَ النَّاسَ مَا بأيديِهم؛ كرهوهُ وأبغضوهُ؛ لأنَّ المالَ محبوبٌ لنُفُوسِ بنِي آدمَ، فمَن طلبَ مِنهُم مَا يحبُّونَهُ؛ كرهوهُ لذلكَ، وأمَّا مَن زَهِدَ فِيما في أَيْدِي النَّاسِ، وعفَّ عَنهُم؛ فإنَّهم يحبُّونه، ويُكرمونَهُ لذلكَ، ويسودُ به عليهِم؛ كمَا قالَ أعرابيٌّ لأهلِ البَصْرَةِ: مَن سيِّدُ أهلِ هذهِ القريةِ؟ قالُوا: الحسنُ؛ قالَ: بِمَ سادَهُم؟ قالُوا: «احتاجَ النَّاسُ إلَىٰ عِلْمِهِ، واستغنَىٰ هُوَ عَن دُنياهُم»!

ومَا أحسنَ قولَ بَعْضِ السَّلَفِ ـ في وَصْفِ الدُّنيا وأَهْلِهَا ـ:

ومَا هِيَ إلَّا جيفةٌ مستحيلةٌ ... عليهَا كلابٌ هَمُّهُنَّ اجتذابُها
فإنْ تجتَنِبْها كُنْتَ سِلْماً لأَهْلِهَا ... وإنْ تجتذبْها نازعتْكَ كلابُها





الحَدِيثُ الثَّانِـي والثَّلاثُونَ

عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«لَا ضَرَرَ، ولَا ضِرَارَ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه والدَّارَقُطْنِيُّ وغَيْرُهُمَا ـ مُسْنَداً ـ.

ورَوَاهُ مَالِكٌ في «المُوَطَّإِ»: عَنْ عَمْرِو بنِ يَحْيَىٰ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلاً؛ فأَسْقَطَ أَبا سَعِيدٍ، ولَهُ طُرُقٌ يَقْوَىٰ بَعْضُهَا ببَعْضٍ.

الشَّرْح

حديثُ أبي سَعِيدٍ لَم يخرجْه ابنُ ماجَه؛ إنَّما خرَّجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ والحاكمُ والبيهقيُّ، وقدْ ذكرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ بعضَ طرقِهِ تُقوَّىٰ ببعضٍ؛ وهُوَ كمَا قالَ.

وقالَ أبو عمرٍو ابنُ الصَّلاحِ: «هذَا الحديثُ أسندَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ مِن وجوهٍ، ومجموعُها يُقوِّي الحديثَ ويحسِّنُهُ، وقد تقبَّلَهُ جماهيرُ أهلِ العِلْمِ، واحتجُّوا بهِ».

وقدِ استدلَّ الإمامُ أحمدُ بهذَا الحديثِ؛ وقالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَا ضررَ، ولَا ضِرَارَ**».

• قولُه ﷺ: «لَا ضررَ ولَا ضِرَارَ»:

اختلَفُوا: هلْ بينَ اللَّفظَتَينِ ـ أعنِي: (الضَّررَ) و(الضِّرارَ) ـ فرقٌ، أَم لَا؟

فمِنهُم مَن قالَ: هُما بمعنىً واحدٍ؛ علَىٰ وَجْهِ التَّأكيدِ.

والمشهورُ: أنَّ بينَهما فرْقاً؛ ثُمَّ قيلَ: (الضَّررُ): أَن يُدخِلَ علَىٰ غيرِهِ

ضرراً؛ بمَا ينتفعُ هوَ بهِ؛ و(الضِّرارُ): أَن يُدخِلَ علَىٰ غيرِهِ ضَرَراً؛ بمَا لَا منفعةَ لهُ بهِ؛ كمَن منعَ مَا لَا يضرُّهُ، ويتضرَّرُ بهِ[1] الممنوعُ. ورَجَّحَ هذَا القولَ: طائفةٌ؛ مِنهُم: ابنُ عَبْدِ البَرِّ، وابنُ الصَّلَاحِ.

وقيلَ: (الضَّررُ): أَن يضرَّ بمَن لَا يضرُّهُ، و(الضِّرارُ): أَن يضرَّ بمَن قدْ أضرَّ بهِ؛ علَىٰ وجهٍ غيرِ جائزٍ.

وعلَىٰ كلِّ حالٍ؛ فالنَّبيُّ ﷺ إنَّما نفَىٰ الضَّررَ والضِّرارَ بغيرِ حَقٍّ؛ فأمَّا إدخالُ الضَّررِ علَىٰ أحدٍ بحَقٍّ، إمَّا لكونِهِ تعدَّىٰ حدودَ اللهِ، أَو كونِهِ ظلمَ غيرَهُ؛ فهذَا غيرُ مرادٍ قَطْعاً؛ وإنَّما المرادُ: إلحاقُ الضَّررِ بغيرِ حَقٍّ.



وممَّا يدخلُ في عمومِ قولِهِ ﷺ: «**لَا ضررَ**»: أنَّ اللهَ لَم يكلِّفْ عبادَهُ فعلَ مَا يضرُّهم البتةَ؛ فإنَّ مَا يأمرُهُم بهِ هُوَ عينُ صلاحِ دينِهم ودُنياهُم، ومَا نهاهُم عَنهُ هُوَ عينُ فسادِ دينِهِم ودُنياهُم، لكنَّه لَم يأمرْ عبادَهُ بشيْءٍ هُوَ ضَارٌّ لَهم في أبدانِهم أيضاً؛ ولهذَا؛ أسقطَ الطَّهارَةَ بالماءِ عَن المريضِ، وأسقطَ الصِّيامَ علَىٰ المريضِ والمسافرِ.

في «المُسند»، عَن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ: قيلَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ: أيُّ الأديانِ أحبُّ إلَىٰ اللهِ؟ قالَ: «**الحَنيفيَّةُ السَّمْحَةُ**»، ومِن حديثِ عائشةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إنِّي أُرْسِلْتُ بحَنيفيَّةٍ سَمْحَةٍ**»[2].

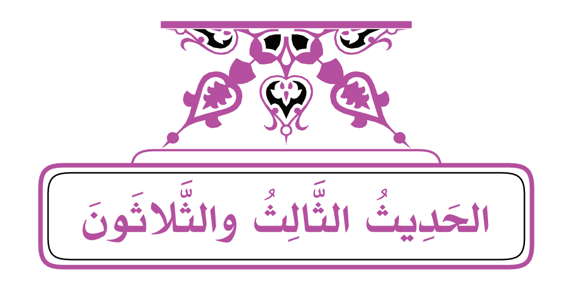
ومِن هذَا المعنَىٰ: مَا في «الصَّحيحينِ»، عَن أنسٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَأَىٰ رجلاً يَمْشِي؛ قيلَ: إنَّه نذرَ أَن يحجَّ مَاشِياً؛ فقالَ: «**إنَّ اللهَ لغنيٌّ عَن مشيهِ؛ فلْيَرْكَبْ**»، وفي رِوايةٍ: «**إنَّ اللهَ لغنيٌّ عَن تعذيبِ هذَا نفسَهُ**»[3]!

---

(١) (بهِ)؛ أَي بمنعِهِ.

(٢) أخرجَهُ أحمدُ (٦/ ٢٣٣)، مِن حديثِ عائشة رضي الله عنها، والحديثُ مرويٌّ عَن عددٍ مِن الصَّحابةِ ـ مِنهُم: جابرٌ، وأبو أمامةَ ـ، وأسانيدُهُ ضعيفةٌ، لكنَّ القَدْرَ المذكورَ قدْ يرتقِي بشواهِدِهِ إلَىٰ درجةِ الحُسْنِ، واللهُ أعلَمُ.

(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (١٨٦٥)؛ ومُسلِمٌ (١٦٤).



الحَدِيثُ الثَّالِثُ والثَّلاثُونَ

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

«لَوْ يُعْطَىٰ النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ؛ لَادَّعَىٰ رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ ودِمَاءَهُمْ! لَكِنَّ البَيِّنَةَ عَلَىٰ المدَّعِي، واليَمِينَ عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ وغَيْرُهُ هكذَا.

وبَعْضُهُ في «الصَّحيحينِ».

الشَّرْح

أصلُ هذَا الحديثِ خرَّجَاهُ في «الصَّحيحينِ»، مِن حديثِ: ابنِ جُرَيجٍ، عَن ابنِ أَبي مُليكةَ، عَن ابنِ عبَّاسٍ، عَن النَّبيِّ قالَ: «**لَوْ يُعْطَىٰ النَّاسُ بِدَعْواهُم؛ لادَّعَىٰ ناسٌ دِماءَ رِجالٍ وأموالَهم! ولكنَّ اليمينَ علَىٰ المدَّعَىٰ عليهِ**».

واللَّفظُ الَّذِي ساقَهُ بِهِ الشَّيخُ؛ ساقَهُ ابنُ الصَّلاحِ قبلَهُ في «الأحاديثِ الكُليَّاتِ»؛ وقالَ: «رواهُ البيهقيُّ؛ بإسنادٍ حَسَنٍ».

وقَد استدلَّ الإمامُ أحمدُ وأَبو عُبيدٍ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**البَيِّنَةُ علَىٰ المدَّعِي، واليمينُ علَىٰ مَن أنكرَ**»؛ وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ اللفظَ صَحِيحٌ مُحْتَجٌّ بهِ.

وفي المعنَىٰ أحاديثُ كثيرةٌ:

ففِي «الصَّحيحينِ»، عَن الأشعثِ بنِ قيسٍ، قالَ: كانَ بينِي وبينَ رجلٍ خصومةٌ في بِئْرٍ؛ فاختصمنَا إلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**شَاهِدَاكَ، أَو يمينُهُ**»؛ قلتُ: إذاً؛ يحلفُ ولَا يُبالِي! فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن حلفَ علَىٰ يمينٍ؛ يستحقُّ بِهَا مالاً، هُوَ فِيها فاجرٌ؛ لَقِيَ اللهَ وهُوَ عليهِ غضبانٌ**»؛

فأنزلَ اللهُ تصديقَ ذلكَ؛ ثُمَّ اقترأَ هذِهِ الآيةَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧].

قالَ ابنُ المنذرِ: «أجمعَ أهلُ العِلْمِ علَىٰ أنَّ البَيِّنَةَ علَىٰ المدَّعِي، واليمينَ علَىٰ المدَّعَىٰ عليهِ»؛ قالَ: «ومعنَىٰ قولِهِ: **«البَيِّنَة علَىٰ المدَّعِي»**؛ يعنِي: يستحقُّ بِهَا مَا ادَّعَىٰ؛ لأنَّها واجبٌة عليهِ؛ يؤخذُ بِهَا. ومعنَىٰ قولِهِ: **«اليمينُ علَىٰ المدَّعَىٰ عليهِ»**؛ أَي: يبرأُ بِهَا؛ لأنَّها واجبةٌ عليهِ؛ يؤخذُ بِهَا علَىٰ كلِّ حالٍ»؛ انتهَىٰ.

• وقولُه ﷺ: **«البَيِّنَةُ علَىٰ المدَّعِي، واليمينُ علَىٰ مَن أنكرَ»:**

إنَّما أُريدَ بهِ إذَا ادَّعىٰ علَىٰ رجلٍ مَا يدَّعيهِ لنفسِهِ، وينكرُ أنَّه لمَن ادَّعاهُ عليهِ؛ ولهذَا قالَ في أوَّلِ الحديثِ: **«لَوْ يُعْطَىٰ النَّاسُ بدَعْواهُم؛ لادَّعىٰ رجالٌ دماءَ قومٍ وأموالَهم»**، فأمَّا مَن ادَّعىٰ مَا ليسَ لهُ مُدَّعٍ لنفسِهِ، منكر لدَعواهُ؛ فهذَا أسهلُ مِن الأوَّلِ؛ ولَا بُدَّ للمدَّعِي هُنَا مِن بَيِّنَةٍ، ولكنْ؛ يكتفَىٰ مِن البَيِّنَةِ ـ هُنَا ـ بِمَا لَا يكتفَىٰ بِهَا في الدَّعوَىٰ علَىٰ المدَّعِي لنفسِهِ المنكِر.

ويشهدُ لذلكَ مسائِلُ:

مِنهَا: اللُّقطةُ؛ إذَا جاءَ مَن وصفَها؛ فإنَّها تُدفَعُ إليهِ، بغيرِ بَيِّنَةٍ بالاتِّفاقِ، لكنَّ مِنهُم مَن يقولُ: يجوزُ الدَّفعُ إذَا غلبَ علَىٰ الظَّنِّ صِدْقُهُ، ولا يجبُ كقولِ الشَّافعيِّ وأَبي حنيفةَ، ومِنهُم مَن يقولُ: يجبُ دفعُهَا بذِكْرِ الوَصْفِ المطابِقِ؛ كقولِ مالكٍ وأحمدَ.

ومنهَا: الغنيمةُ؛ إذَا جاءَ مَن يدَّعِي مِنهَا شيئاً، وأنَّه كانَ لهُ، واستولَىٰ عليهِ الكفَّارُ، وأقامَ علَىٰ ذلكَ مَا يبيِّنُ أنَّه لهُ؛ اكتُفِيَ بهِ؛ وسُئِلَ عَن ذلكَ أحمدُ؛ وقيلَ لهُ: فيريدُ علَىٰ ذلكَ بَيِّنَةً؟ قالَ: «لَا بدَّ مِن بيانٍ؛ يدلُّ علَىٰ أنَّه لهُ، وإنْ علمَ ذلكَ؛ دفعهُ إليهِ الأميرُ».

ورَوَىٰ الخلَّالُ بإسنادِهِ، عَن الرُّكينِ بنِ الرَّبيعِ، عَن أبيهِ، قالَ:

«جشرَ[١] لأخِي فَرَسٌ بعينِ التَّمرِ؛ فرآهُ في مِرْبَط سعدٍ؛ فقالَ: فَرَسِي! فقالَ سعدٌ: ألكَ بَيِّنَةٌ؟ قالَ: لا! ولكنْ؛ أدْعُوه فيُحمحمُ! فدَعَاهُ؛ فحَمحمَ! فأعطاهُ إيَّاه».

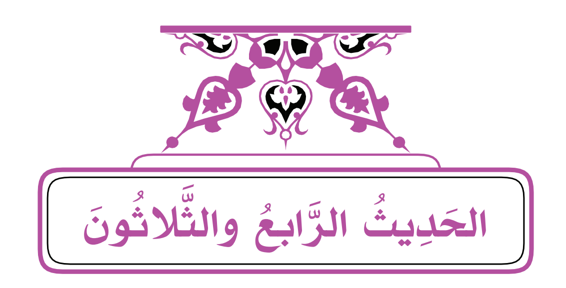
وهذَا يحتملُ أنَّه كانَ لَحِقَ بالعدُوِّ، ثُمَّ ظهرَ عليهِ المسلمونَ. ويحتملُ أنَّه عرفَ أنَّه ضالٌّ؛ فوُضع بينَ الدَّوابِّ الضالَّةِ؛ فيكونُ كاللُّقطةِ.

ومِنهَا: الغصوبُ؛ إذَا علمَ ظلمَ الوُلاةِ، وطلبَ ردَّها مِن بيتِ المالِ؛ قالَ أبو الزِّنادِ: «كانَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ يردُّ المظالِمَ إلَىٰ أهلِهَا، بغيرِ البَيِّنَةِ القاطعةِ؛ كانَ يكتفِي باليسيرِ؛ إذَا عرفَ وَجْهَ مظلمةِ الرَّجُلِ؛ ردَّها عليهِ، ولم يكلِّفْهُ تحقيقَ البَيِّنَةِ؛ لِمَا يعرفُ مِن غشمِ الوُلاةِ قبلَهُ علَىٰ النَّاسِ! ولقدْ أنفدَ بيتَ مالِ العِرَاقِ في ردِّ المظالِمِ؛ حتَّىٰ حُمِلَ إليهَا مِن الشَّام!».

وذكرَ أصحابُنَا أنَّ الأموالَ المغصوبةَ معَ قُطَّاعِ الطَّريقِ واللُّصوصِ؛ يكتفَىٰ مِن مُدَّعِيها بالصِّفَةِ كاللُّقطةِ؛ ذكرَهُ القاضِي في «خِلافِهِ»؛ وأنَّه ظاهرُ كلامِ أحمدَ.



(١) (جشرَ الفرسُ)؛ أيَ: شردَ.



الحَدِيثُ الرَّابعُ والثَّلاثُونَ

عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُم مُنْكَراً فلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإِنْ لَم يَسْتَطِعْ؛ فبِلِسَانِهِ، فإِنْ لَم يَسْتَطِعْ؛ فبِقَلْبِهِ، وذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشَّرح

هذَا الحديثُ خرَّجَهُ مُسلِمٌ، مِن رِوايةِ قيسِ بنِ مسلمٍ، عَن طارقِ بنِ شهابٍ، عَن أَبي سعيدٍ، ومِن رِوايةِ إسماعيلَ بنِ رجاءٍ، عَن أَبيهِ، عَن أَبي سعيدٍ. وعِندَهُ في حديثِ طارقٍ، قالَ: «أوَّلُ مَن بدأَ بالخُطْبَةِ يومَ العيدِ قبلَ الصَّلاةِ مروانُ؛ فقامَ إليهِ رجلٌ؛ فقالَ: الصَّلاةُ قبلَ الخُطْبَةِ. فقالَ: قدْ تُرِكَ مَا هُنالِكَ! فقالَ أبو سعيدٍ: أمَّا هذَا[1] فقدْ قضَىٰ مَا عليهِ»؛ ثُمَّ رَوَىٰ هذَا الحديثَ.



وقدْ رُوِيَ معنَاهُ مِن وجوهٍ أُخرَ:

فخرَّجَ مُسلِمٌ، مِن حديثِ ابنِ مسعودٍ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَا مِن نبيٍّ بعثَهُ اللهُ في أُمَّةٍ قبلِي؛ إلَّا كانَ مِن أُمَّتِهِ حواريُّونَ وأصحابٌ؛ يأخذونَ بسُنَّتِهِ، ويقتدونَ بأمرِهِ، ثُمَّ إنَّها تخلفُ مِن بعدِهِم خلوفٌ؛ يقولونَ مَا لَا يفعلونَ،**

(١) يَعنِي: الرَّجل الَّذِي أنكرَ علَىٰ مروانَ.

ويفعلونَ مَا لَا يُؤْمَرونَ؛ فمَن جاهدَهُم بيدِهِ؛ فهُوَ مؤمنٌ، ومَن جاهدَهُم بلسانِهِ؛ فهُوَ مؤمنٌ، ومَن جاهدَهُم بقلبِهِ؛ فهُوَ مؤمنٌ، ليسَ وراءَ ذلكَ مِن الإيمانِ حبَّةُ خردلٍ»[(١)].

فدلَّتْ هذِهِ الأحاديثُ علَىٰ وجوبِ إنكارِ المُنكرِ؛ بحسبِ القُدْرَةِ عليهِ، وأنَّ إنكارَهُ بالقلبِ لَا بُدَّ منهُ؛ فمَن لَم يُنكِرْ قلبُهُ المُنكَرَ؛ دلَّ علَىٰ ذهابِ الإيمانِ مِن قلبِهِ!

وسمعَ ابنُ مسعودٍ رجلاً يقولُ: هلكَ مَن لَم يأمرْ بالمعروفِ ولَم ينهَ عَن المُنكَرِ؛ فقالَ ابنُ مسعودٍ: «هلكَ مَن لَم يعرفْ بقلبِهِ المعروفَ والمُنكَرَ»! يُشيرُ إلَىٰ أنَّ معرفةَ المعروفِ والمُنكرِ فرضٌ، لَا يسقطُ عَن أحدٍ؛ فمَن لَم يعرفْهُ؛ هلكَ!



وأمَّا الإنكارُ باللِّسانِ واليدِ؛ فإنَّما يجبُ بحسبِ الطَّاقةِ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ: «يوشكُ مَن عاشَ مِنكُم أَن يرَىٰ مُنكَراً لَا يستطيعُ لهُ؛ غيرَ أَن يُعلِمَ اللهَ مِن قلبِهِ أنَّه لهُ كارهٌ»!

فمَن شَهِدَ الخطيئةَ؛ فكرِهَهَا في قلبِهِ؛ كانَ كمَن لَم يشهدْهَا، إذَا عجزَ عَن إنكارِهَا بلسانِهِ ويدِهِ، ومَن غاب عَنهَا، فرَضِيَها؛ كانَ كمَن شَهِدَهَا، وقدرَ علَىٰ إنكارِهَا ولَم يُنكِرْهَا! لأنَّ الرِّضا بالخطايَا مِن أقبحِ المحرّماتِ، ويفوتُ بهِ إنكارُ الخطيئةِ بالقلبِ؛ وهُوَ فرضٌ علَىٰ كلِّ مُسلِمٍ؛ لَا يسقطُ عَن أحدٍ في حالٍ مِن الأحوالِ.

فالإنكارُ بالقلبِ فرضٌ علَىٰ كلِّ مُسلِمٍ في كلِّ حالٍ، وأمَّا الإنكارُ باليدِ واللِّسانِ؛ فبحسبِ القُدْرَةِ[(٢)].

---

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٥٠).

(٢) وقالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «اقتضاء الصِّراطِ المستقيمِ» (١/ ٢٧٢): «وإنكارُ =

• وقولُه ﷺ ـ في الَّذِي ينكرُ بقلبِهِ ـ: «وذلكَ أضعفُ الإيمانِ»:

يدلُّ علَىٰ أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عَن المُنكَرِ مِن خصالِ الإيمانِ، ويدلُّ علَىٰ أنَّ مَن قدرَ علَىٰ خصلةٍ مِن خصالِ الإيمانِ، وفَعَلَها؛ كانَ أفضلَ ممَّن تركَها عجزاً عَنهَا؛ ويدلُّ علَىٰ ذلكَ أيضاً قولُهُ ﷺ في حقِّ النِّساءِ: «**أمَّا نقصانُ دِينِها؛ فإنَّها تمكثُ الأيَّامَ واللَّيالِيَ لَا تُصَلِّي**»[(١)]؛ يشيرُ إلَىٰ أيَّامِ الحَيْضِ، معَ أنَّها ممنوعةٌ مِن الصَّلاةِ حينَئذٍ، وقدْ جعلَ ذلكَ نقصاً في دينِهَا؛ فدلَّ علَىٰ أنَّ مَن قدرَ علَىٰ واجبٍ وفَعَلَهُ؛ فهُوَ أفضلُ ممَّن عجزَ عَنهُ وتَرَكَهُ؛ وإنْ كانَ معذوراً في تركِه. واللهُ أَعْلَمُ.

• وقولُه ﷺ: «مَن رَأَىٰ مِنكُم مُنكَراً»:

يدلُّ علَىٰ أنَّ الإنكارَ متعلِّقٌ بالرُّؤيةِ؛ فلَو كانَ مستوراً فلَم يرَهُ، ولكنْ عَلِمَ بِهِ؛ فالمنصوصُ عَن أحمدَ في أكثرِ الرِّواياتِ: «أنَّه لَا يعرضُ لهُ، وأنَّه لَا يفتِّشُ علَىٰ مَا استرابَ بِهِ».

وعَنهُ ـ في رِوايةٍ أُخرَىٰ ـ: «أنَّه يكشفُ المغطَّىٰ إذَا تحقَّقَهُ، ولَو سَمِعَ صوتَ غناءٍ محرَّمٍ أَو آلاتِ الملاهِي، وعَلِمَ المكانَ الَّتِي هِيَ فيهِ؛ فإنَّه يُنكِرُهَا؛

= القلبِ: هُوَ الإيمانُ بأنَّ هذَا منكرٌ، وكراهتُهُ لذلكَ؛ فإذَا حصل هذَا؛ كانَ في القلبِ إيمانٌ، فإذَا فقدَ القلبُ معرفةَ هذَا المعروفِ، وإنكار المنكرِ؛ ارتفعَ هذَا الإيمانُ مِن القلبِ». اهـ.

أقولُ: وهذَا مِن أهمِّ مَا ينبَغِي أَن يُنبَّهَ عليهِ في هذَا الزَّمانِ؛ الَّذِي كَثُرَتْ فيهِ المُنكراتُ، وقلَّ المُنكِرونَ؛ فإنَّ الإنسانَ قدْ يكونُ معذوراً بتركِ الإنكارِ باليدِ واللِّسانِ، أمَّا الإنكارُ بالقلبِ؛ فلَا عُذْرَ لمُسلمٍ في تركِهِ، ومَن تركَهُ؛ خُشيَ عليهِ أَن يفارقَ الإيمانُ قلبَهُ!

فواجبٌ علَىٰ المُسلِمِ أَن ينكرَ المُنكَرَ بقلبِهِ؛ حتَّىٰ لَو وقعَ فيهِ، أَو شاركَ أهلَهُ؛ فإنَّ هذَا أضعفُ الإيمانِ.

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٧٩) (٨٠)، مِن حديثِ ابن عُمَرَ، وأبي هُرَيرَةَ، وأبي سعيد.

لأنَّه قد تحقَّقَ المُنكَرَ، وعَلِمَ موضعَهُ؛ فهُوَ كمَا لَو رآهُ»؛ نصَّ عليهِ أحمدُ؛ وقالَ: «إِذَا لَم يعلمْ مكانَهُ؛ فلَا شيءَ عليهِ».

وأمَّا تسوُّرُ الجُدرانِ علَىٰ مَن عَلِمَ اجتماعَهُم علَىٰ مُنكَرٍ؛ فقدْ أنكرَهُ الأئمَّةُ مثلُ: سُفيانَ الثَّوريِّ، وغيرِه؛ وهُوَ داخلٌ في التَّجسُّسِ المنهيِّ عَنهُ؛ وقدْ قيلَ لابنِ مسعودٍ: إنَّ فلاناً تقطرُ لحيتُهُ خمراً! فقالَ: «نهانَا اللهُ عَن التَّجسُّسِ».

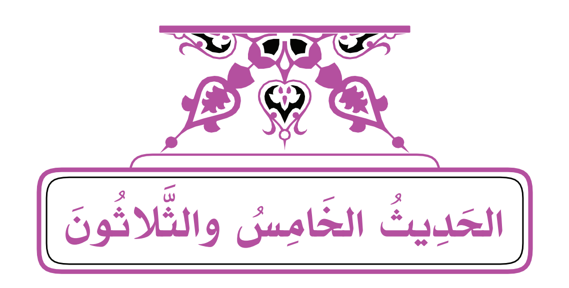
وقالَ القاضِي أَبو يعلَىٰ في كتابِ «الأَحكام السُّلطانيَّة»: «إنْ كانَ في المُنكَرِ الَّذِي غلبَ علَىٰ ظنِّهِ الاستسرارُ بهِ ـ بإخبارِ ثقةٍ عَنهُ ـ انتهاكُ حُرْمَةٍ، يفوتُ استدراكُها كالزِّنَىٰ والقتلِ؛ جازَ التَّجسُّسُ، والإقدامُ علَىٰ الكشفِ والبحثِ؛ حذراً مِن فواتِ مَا لَا يُستدرَكُ مِن انتهاكِ المحارِمِ، وإنْ كانَ دُونَ ذلكَ في الرُّتبةِ؛ لَم يجزِ التَّجسُّسُ عليهِ، ولَا الكشفُ عَنهُ».



واعْلَمْ؛ أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عَن المُنكَرِ، تارَةً؛ يحمِلُ عليهِ رجاءُ ثوابِهِ، وتارَةً؛ خوفُ العقابِ في تركِهِ، وتارَةً؛ الغضبُ للهِ علَىٰ انتهاكِ محارِمِهِ، وتارَةً؛ النَّصيحةُ للمؤمنينَ، والرَّحمةُ لَهم، ورجاءُ إنقاذِهِم ممَّا أوقعُوا أنفسَهُم فيهِ مِن التَّعرُّضِ لغضبِ اللهِ، وعقوبتِهِ في الدُّنيَا والآخرَةِ، وتارَةً؛ يحمِلُ عليهِ إجلالُ اللهِ وإعظامُهُ ومحبَّتُهُ.

وبكلِّ حالٍ؛ يتعيَّنُ الرِّفقُ في الإنكارِ؛ قالَ أحمدُ: «النَّاسُ محتاجونَ إِلَىٰ مُداراةٍ ورِفْقٍ في الأمرِ بالمعروفِ؛ بِلَا غلظةٍ، إلَّا رجلٌ مُعْلِنٌ بالفِسْقِ؛ فلَا حُرْمَةَ لهُ»؛ قالَ: «وكانَ أصحابُ ابنِ مسعودٍ إذَا مرُّوا بقومٍ يرونَ مِنهُم ما يكرهونَ؛ يقولونَ: مَهْلاً ـ رَحِمَكُم اللهُ ـ! مَهْلاً ـ رَحِمَكُم اللهُ ـ!».

وقالَ: «يأمرُ بالرِّفْقِ والخُضُوعِ، فإنْ أسمعُوهُ مَا يكرَهُ؛ لَا يغضبُ؛ فيكونُ يريدُ ينتصرُ لنفسِهِ!».



الحَدِيثُ الخَامِسُ والثَّلاثُونَ

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«لَا تَحاسَدُوا، ولَا تَنَاجَشُوا، ولَا تَبَاغَضُوا، ولَا تَدَابَرُوا، ولَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ؛ وكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً.

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، ولَا يَخْذُلُهُ، ولَا يَكْذِبُهُ، ولَا يَحْقِرُهُ.

التَّقْوَىٰ هَاهُنَا، ويُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ.

كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، ومَالُهُ، وعِرْضُهُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.



• قولُه ﷺ: «لَا تَحاسَدُوا»:

يَعنِي: لَا يحسدُ بعضُكم بَعْضاً.

والحَسَدُ مركوزٌ في طباعِ البشرِ؛ وهُوَ أنَّ الإنسانَ يكرَهُ أَن يفوقَهُ أحدٌ مِن جنسِهِ في شيْءٍ مِن الفضائِلِ[١].

(١) المؤمن يخفي الحسد والمنافق يبديه، وإلا فهو في القلوب البشرية مغروس. (الشيخ عبد العزيز الطريفي).

ثُمَّ ينقسمُ النَّاسُ بعدَ هذَا إلَىٰ أقسامٍ:

فمِنهُم: مَن يسعَىٰ في زوالِ نعمةِ المَحسودِ؛ بالبَغْيِ عليهِ بالقولِ والفِعْلِ؛ وهذَا هُوَ الحسدُ المذمومُ، المنهيُّ عَنهُ.

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والتِّرمِذيُّ، مِن حديثِ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ، عَن النَّبيِّ ﷺ: «**دبَّ إلَيكُم داءُ الأُمَمِ مِن قَبْلِكُم: الحَسَدُ، والبغضاءُ؛ والبغضاءُ هِيَ الحالِقَةُ؛ حالقَةُ الدِّينِ؛ لَا حالِقَةُ الشَّعْرِ...**»[(١)].

وخرَّجَ أبو داودَ، مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إيَّاكُم والحَسَدَ؛ فإنَّ الحَسَدَ يأكلُ الحسناتِ؛ كمَا تأكلُ النَّارُ الحطبَ** ـ أو قالَ: **العشبَ** ـ»[(٢)].

وقِسْم آخَر مِن النَّاسِ: إذَا حسدَ غيرَهُ؛ لَم يعملْ بمُقتضَىٰ حسدِهِ، ولَم يبغِ علَىٰ المَحسودِ بقولٍ ولَا فِعْلٍ. وقَدْ رُوِيَ عَن الحَسَنِ أنَّه لَا يأثمُ بذلكَ.

وهذَا علَىٰ نَوْعَيْنِ:

أَحدهما: أن لَا يمكنَهُ إزالةُ الحَسَدِ مِن نفسِهِ؛ فلَا يأثمُ بهِ.

والثَّاني: مَن يحدِّثُ نفسَهُ بذلكَ اختياراً، ويعيدُهُ ويبديهِ، مُستروحاً[(٣)] إلَىٰ تمنِّي زوالِ نِعْمَةِ أخيهِ؛ فهذَا شبيهٌ بالعَزْمِ المصمِّمِ علَىٰ المعصيَةِ، وفي العقابِ

---

(١) أخرجَهُ أحمدُ (١/ ١٦٤، ١٦٥)، والتِّرمِذيُّ (٢٥١٠)، وفيهِ مقالٌ كثيرٌ؛ أشارَ إليهِ التِّرمذيُّ. لكنَّ الحديثَ جاءَ مِن روايةِ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ؛ أخرجَهُ البزَّارُ، بإسنادٍ جيِّدٍ ـ كمَا قالَ المنذريُّ في «التَّرغيب» ـ.

وأمَّا قولُهُ ﷺ: «**فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْنِ هِيَ الحالقةُ**»؛ فحديثٌ آخرُ؛ وهُوَ الصَّحيحُ ـ كمَا سيأتِي (إنْ شاءَ اللهُ) في شرحِ هذَا الحديثِ ـ.

(٢) أخرجَهُ أبو داودَ (٤٩٠٣)، قالَ العراقيُّ في «تخريج الإحياءِ» (١/ ١٤٩): «وأخرجَهُ أبو داودَ، مِن حديثِ أبي هُرَيرَةَ. قالَ البُخَارِيُّ: لَا يصحُّ. وهُوَ عِندَ ابنِ ماجَه، مِن حديثِ أنسٍ، بإسنادٍ ضعيفٍ، وفي «تاريخ بغدادٍ»، بإسنادٍ حسنٍ». اهـ.

(٣) (مُستروحاً)؛ أَي: مستريحاً ـ أو مرتاحاً ـ إلَىٰ ذلكَ؛ قالَ الفيروزآبادي في «القاموس»، مادة: (روح)، استروح؛ كـ(استراح).

علَىٰ ذلكَ اختلافٌ بينَ العلماءِ؛ لكنْ؛ هذَا يبعدُ أَن يسلمَ مِن البَغْيِ علَىٰ المَحسودِ ـ ولَو بالقولِ ـ؛ فيأثَم.

وقِسْم آخرَ: إذَا حسدَ؛ لَم يتمنَّ زوالَ نِعْمَةِ المَحسودِ؛ بلْ يسعَىٰ في اكتسابِ مِثْلِ فضائلِهِ، ويتمنَّىٰ أَن يكونَ مِثْلَهُ. فإنْ كانتِ الفضائلُ دُنيويَّةً فلَا خيرَ في ذلكَ، وإنْ كانتِ الفضائلُ دِينيَّةً؛ فهُوَ حَسَنٌ؛ فقد تمنَّىٰ ﷺ الشَّهادَةَ، وفي «الصَّحيحينِ»، عَنهُ ﷺ قالَ: **«لَا حَسَدَ إلَّا في اثنتَينِ: رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً؛ فهُوَ ينفقُهُ، آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ؛ فهُوَ يقومُ بِهِ، آناءَ اللَّيلِ، وآناءَ النَّهارِ»**[1].

وهذَا هُوَ (الغِبطَةُ)؛ وسَمَّاه (حَسَداً) مِن بابِ الاستعارَةِ.

وقِسْم آخَر: إذَا وجدَ مِن نفسِهِ الحَسَدَ؛ سعَىٰ في إزالتِهِ، وفي الإحسانِ إلَىٰ المَحسودِ، والدُّعاءِ لهُ، ونشرِ فضائلِهِ، وفي إزالةِ مَا وجدَ لهُ في نفسِهِ مِن الحَسَدِ؛ حتَّىٰ يبدلَه بمحبَّةِ أَن يكونَ أخوهُ المُسلِمُ خيراً مِنهُ وأفضلَ! وهذَا مِن أعلَىٰ درجاتِ الإيمانِ، وصاحبُهُ هُوَ المؤمنُ الكاملُ؛ الَّذِي يحبُّ لأخيهِ مَا يحبُّ لنفسِهِ.



• وقولُه ﷺ: **«ولَا تَناجَشُوا»:**

فسَّرَهُ كثيرٌ مِن العلماءِ بـ: النَّجشِ في البَيْعِ؛ وهُوَ أنَّ يزيدَ في السِّلعةَ مَن لَا يريدُ شراءَهَا؛ إمَّا لنفعِ البائعِ بزيادَةِ الثَّمنِ لهُ، أَو بإِضرارِ المُشترِي بتكثيرِ الثَّمنِ عليهِ.

ويحتملُ أَن يُفسَّرَ (التَّناجش) ـ المنهيُّ عَنهُ في هذَا الحديثِ ـ بمَا هُوَ أعمُّ مِن ذلكَ؛ فإنَّ أصلَ (النَّجشِ) في اللُّغَةِ: إثارةُ الشَّيْءِ بالمكرِ والحِيلةِ؛ ويُسَمَّىٰ (الصائدُ) ـ في اللُّغةِ ـ ناجشاً؛ لأنَّه يثيرُ الصَّيدَ بحِيلتِهِ عليهِ، وخداعِهِ

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٧٣)؛ ومُسلِمٌ (٨١٦).

لهُ. وحينَئذٍ؛ فيكونُ المعنَىٰ: لَا تتخادَعُوا، ولا يعاملُ بعضُكم بعضاً بالمكرِ والاحتيالِ.

فعلَىٰ هذَا التَّقديرِ يدخلُ في التَّناجشِ المنهيِّ عَنهُ جميعُ أنواعِ المعاملاتِ بالغشِّ، ونحوِهِ.



• قولُه ﷺ: «**وَلَا تَبَاغَضُوا**»:

نَهىٰ المسلمينَ عَن التَّباغُضِ بينَهم في غيرِ اللهِ، بلْ علَىٰ أهواءِ النُّفوسِ؛ فإنَّ المسلمينَ جعلَهُم اللهُ إخوةً؛ والإخوةُ يتحابونَ بينَهم ولَا يتباغضونَ. وقدِ امتنَّ اللهُ علَىٰ عبادِهِ بالتَّأليفِ بينَ قلوبِهم؛ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولهذَا المعنَىٰ؛ حَرَّمَ المشيَ بالنَّميمةِ؛ لمَا فِيهَا مِن إيقاعِ العداوةِ والبغضاءِ، ورَغَّبَ في الإصلاحِ بينَ النَّاسِ.

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ والتِّرمِذِيِّ، مِن حديثِ أَبي الدَّرداءِ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**أَلَا أُخبرُكُم بأفضلِ مِن درجةِ الصَّلاةِ والصِّيامِ والصَّدَقَةِ؟**»؛ قالُوا: بلَىٰ يَا رَسُول اللهِ؛ قالَ: «**صلاحُ ذاتِ البَيْنِ؛ فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْنِ هِيَ الحالقةُ**»[1].

وأمَّا البُغْضُ في اللهِ؛ فهُوَ مِن أوثقِ عُرَىٰ الإيمانِ، وليسَ داخلاً في النَّهْيِ.

ولمَّا كَثُرَ اختلافُ النَّاسِ في مسائلِ الدِّينِ، وكَثُرَ تفرُّقُهم؛ كَثُرَ بسببِ ذلكَ تباغُضُهم وتلاعُنُهم، وكلٌّ مِنهُم يُظهِرُ أنَّه يبغضُ للهِ، وقدْ يكونُ في نفسِ الأمرِ معذوراً، وقدْ لَا يكونُ معذوراً؛ بلْ يكونُ متَّبعاً لهواهُ، مقصِّراً في البحثِ

---

(١) أخرجَهُ أحمدُ (٦/ ٤٤٤)؛ وأبو داودَ (٤٩١٩)؛ والتِّرمِذيُّ (٥٠٩)، وقالَ: «هذَا حديثٌ صحيحٌ».

عَن معرفةِ مَا يُبغَضُ عليهِ! فالواجبُ علَىٰ المؤمنِ أَن ينصحَ نفسَهُ، ويتحرَّزَ في هذَا غايةَ التَّحرُّزِ، ومَا أشكلَ مِنهُ لَا يُدْخِلُ نفسَهُ فيهِ؛ خشيةَ أَن يقعَ فِيمَا نُهِيَ عَنهُ مِن البُغْضِ المُحَرَّمِ.



• قولُه ﷺ: «**ولَا تَدَابَرُوا**»:

قالَ أَبو عُبَيْدٍ: «(التَّدابُرُ): المُصارَمَةُ والهُجْرَانُ؛ مأخوذٌ مِن أَن يولِّي الرَّجلُ صاحبَهُ دُبُرَهُ، ويُعرِضُ عنهُ بوَجْهِهِ؛ وهُوَ التَّقاطُعُ».

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن أَبي أَيُّوبَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**لَا يحلُّ لمُسلِمٍ أَن يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ، يلتقيانِ؛ فيصُدُّ هذَا، ويصُدُّ هذَا؛ وخيرُهُما الَّذِي يبدأُ بالسَّلامِ**»[(١)].

وخرَّجَ أبو داودَ، مِن حديثِ أبي خِرَاشٍ السُّلَمِيِّ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَن هجرَ أخاهُ سنةً؛ فهُوَ كسفكِ دمِهِ**»[(٢)]!

وكلُّ هذَا في التَّقاطُعِ للأُمُورِ الدُّنيويَّةِ، فأمَّا لأجلِ الدِّينِ؛ فتجوزُ الزِّيادةُ علَىٰ الثَّلاثِ؛ نصَّ عليهِ أحمدُ؛ واستدلَّ بقصَّةِ الثَّلاثةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا[(٣)].

وذكرَ الخطَّابيُّ أنَّ هجرانَ الوالدِ لولدِهِ، والزَّوجِ لزوجتِهِ ـ ومَا كانَ في معنَىٰ ذلكَ ـ تأديباً؛ تجوزُ الزِّيادةُ فيهِ علَىٰ الثَّلاثِ؛ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ هجرَ نِساءَهُ شَهْراً.

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٦٠٧٧)؛ ومُسلِمٌ (٢٥٦٠).

(٢) أخرجَهُ أبو داودَ (٤٩١٥)، قالَ العراقيُّ في «تخريج أحاديثِ الإحياءِ» (٣/ ١٢٦٥): «إسنادُهُ صحيحٌ».

(٣) مرادُ المؤلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ التَّهاجُرَ بسببِ الدُّنيا ـ كسبابٍ، أو خصومةٍ، ونحوِهما ـ لَا يجوزُ أَن يتجاوزَ ثلاثةَ أيَّامٍ، أمَّا مَن هجرَ عاصياً لمعصيتِهِ، أَو مبتدعاً لبدعتِهِ؛ فإنَّه لَا يراجعُهُ في ثلاثٍ؛ وإنَّما يكونُ الهجرُ حسبَ المصلحةِ الشَّرعيَّةِ ـ ولَو زادَ ذلكَ علَىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ـ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ هجرَ الثَّلاثةَ الَّذِينَ خُلِّفُوا خمسينَ يوماً.

• قولُه ﷺ: «**ولَا يبعْ بعضُكم علَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ**»:

معنَىٰ (البَيْعِ علَىٰ بَيْعِ أَخيهِ): أَن يكونَ قدْ باعَ مِنهُ شيئاً؛ فيبذلَ للمُشترِي سلعتَهُ؛ ليشتريهَا، ويفسخَ بَيْعَ الأوَّلِ.

• قولُه ﷺ: «**وكُونُوا عبادَ اللهِ إخْواناً**»:

هذَا ذكرَهُ النَّبيُّ ﷺ كالتَّعليلِ لمَا تقدَّمَ؛ وفيهِ إشارَةٌ إلَىٰ أنَّهم إذَا تركُوا التَّحاسدَ، والتَّناجشَ، والتَّباغضَ، والتَّدابرَ، وبَيْعَ بعضِهم علَىٰ بَيْعِ بعضٍ؛ كانُوا إخْواناً.

وفيهِ أمرٌ باكتسابِ مَا يصيرُ بهِ المسلمونَ إخواناً ـ علَىٰ الإطلاقِ ـ؛ وذلكَ يدخلُ فيهِ أداءُ حقوقِ المُسلم علَىٰ المُسلِمِ؛ مِن رَدِّ السَّلامِ، وتشميتِ العاطسِ، وعيادةِ المريضِ، وتَشييعِ الجنازةِ، وإجابةِ الدَّعوةِ، والابتداءِ بالسَّلامِ عندَ اللِّقاءِ، والنُّصحِ بالغَيْبِ.

وفي «التِّرمِذيِّ»، عَن أبي هُرَيرةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**تهَادُوا؛ فإنَّ الهديةَ تُذهبُ وحَرَ الصَّدْرِ**»[1]، وخرَّجَهُ غيرُه؛ ولفظُه: «**تهادوا؛ تحابُّوا**»[2].



• قولُه ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، ولَا يَخْذُلُهُ، ولَا يَكْذِبُهُ، ولَا يَحْقِرُهُ**»:

هذَا مأخوذٌ مِن قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ فإذَا كانَ المؤمنونَ إخوةً؛ أُمِرُوا فيمَا بينَهم بمَا يوجبُ تآلُفَ

---

(١) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٢١٣٠)، قالَ الحافظُ في «التَّلخيص» (٣/ ٨٠): «في إسنادِهِ أبو معشرٍ المدنيُّ ـ وتفرَّدَ بهِ ـ؛ وهُوَ ضعيفٌ».

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، وحسَّنَه الحافظُ في «التَّلخيص» (٣/ ٨٠)، وتابعه علَىٰ ذلكَ الألبانيُّ في «الإرواء» (١٦٠١).

القلوبِ واجتماعَها، ونُهُوا عمَّا يوجبُ تنافرَ القلوبِ واختلافَها؛ وهذَا مِن ذلكَ.

وأيضاً؛ فإنّ الأخَ مِن شأنِهِ أَن يوصلَ إلَىٰ أخيهِ النَّفعَ، ويكفَّ عَنهُ الضَّررَ؛ ومِن أعظمِ الضَّررِ: الظُّلمُ.

ومِن ذلكَ: خذلانُ المُسلِمِ لأخيهِ؛ فإنَّ المُسلِمَ مأمورٌ أَن ينصرَ أخاهُ.

ومِن ذلكَ: كَذِبُ المُسلِمِ لأخيهِ؛ فلَا يحلُّ لهُ أن يحدِّثَهُ فيكْذِبَهُ؛ بلْ لَا يُحدِّثُه إلَّا صِدْقاً.

ومِن ذلكَ: احتقارُ المُسلِمِ لأخيهِ؛ وهُوَ ناشئٌ عَن الكِبْرِ؛ فالمتكبِّرُ ينظرُ إلَىٰ نفسِهِ بعينِ الكمالِ، وإلَىٰ غيرِهِ بعينِ النَّقصِ؛ فيحتقرُهم ويزدريهم، ولَا يراهُم أهلاً لأَن يقومَ بحقُوقِهم، ولَا أَن يَقبَلَ مِن أحدِهِم الحقَّ إذَا أَوردَهُ عليهِ.



• قولُه ﷺ: **«التَّقوَىٰ هَاهُنا»؛** ويشيرُ إلَىٰ صَدْرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ:

فيهِ إشارَةٌ إلَىٰ أَنَّ كَرَمَ الخَلْقِ عِندَ اللهِ بالتَّقوَىٰ؛ فرُبَّ مَن يَحْقِرَهُ النَّاسُ؛ لضعفِهِ، وقلَّةِ حظِّهِ مِن الدُّنيا؛ وهُوَ أعظمُ قَدْراً عِندَ اللهِ ممَّن لهُ قَدْرٌ في الدُّنيا؛ فإنَّ النَّاسَ إنَّما يتفاوتونَ بحسبِ التَّقوَىٰ؛ كمَا قالَ ـ تعالَىٰ ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي «صَحيحِ البُخَارِيِّ»، عَن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ، قالَ: مرَّ رجلٌ علَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فقالَ لرجلٍ عِندَه جالسٌ[(١)]: **«مَا رأْيُكَ في هذَا؟»**؛ فقالَ: رجلٌ مِن أشرافِ النَّاسِ؛ هذَا ـ واللهِ ـ حريٌّ إنْ خطبَ أَن يُنكَحَ، وإنْ شفعَ أَن يُشفَّعَ، وإنْ قالَ أَن يُسمَعَ لقولِهِ! قالَ: فسكتَ النَّبيُّ ﷺ، ثُمَّ مرَّ رجلٌ آخرُ؛ فقالَ لهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا رأْيُكَ في هذَا؟»**؛ قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هذَا رجلٌ مِن فقراءِ المُسلمينَ؛ هذَا حريٌّ إنْ خطبَ أَن لَا يُنكَحَ، وإنْ شفعَ أَن لَا يُشفَّعَ،

(١) القائِلُ: رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وإنْ قالَ ألَّا يُسمَعَ لقولِهِ! فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هذَا خيرٌ مِن مِلْءِ الأرضِ مِثْلَ هذَا**»[(١)] !

• قولُه ﷺ: «**بحسبِ امرئٍ مِن الشَّرِّ أَن يَحْقِرَ أخاهُ المُسلِمَ**»:

يَعنِي: يكفيهِ مِن الشَّرِّ احتقارُ أخيهِ المُسلِم؛ فإنَّه إنَّما يحتقرُ أخاهُ المُسلِمَ لتكبُّرِهِ عليهِ؛ والكِبْرُ مِن أعظمِ خصالِ الشَّرِّ؛ وفي «صَحيح مُسلِم»، عَن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**لَا يدخلُ الجنَّةَ مَن في قلبِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**»[(٢)]، وفيهِ ـ أيضاً ـ، أنَّه قالَ: «**العِزُّ إزارُه، والكِبْرُ رِدَاؤُهُ؛ فمَن نازَعَنِي عذَّبتُهُ**»[(٣)]، فمنازعةُ اللهِ صفاتَهُ الَّتِي لَا تليقُ بالمخلوقِ؛ كفَىٰ بِهَا شرّاً!

وفي «صَحيح مُسلِم»، عَن أبي هُرَيرةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَن قالَ: هَلَكَ النَّاسُ؛ فهُوَ أهلَكهُم**»[(٤)]؛ قالَ مالكٌ: «إذَا قالَ ذلكَ تحزُّنا لِمَا يرَىٰ في النَّاسِ ـ يَعنِي: في دينهِم ـ؛ فلَا أرَىٰ بهِ بأساً، وإذَا قالَ ذلكَ عُجباً بنفسِهِ، وتصاغراً للنَّاسِ؛ فهُوَ المكروهُ الَّذِي نُهِيَ عَنْهُ»؛ ذكرَهُ أبو داودَ في «سُنَنِهِ».

• قولُه ﷺ: «**كلُّ المُسلِمِ علَىٰ المُسلِمِ حَرَامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ**»:

هذَا ممَّا كانَ النَّبيُّ ﷺ يخطبُ بِهِ في المجامِعِ العظيمَةِ؛ فإنَّه خطبَ بهِ في حَجَّةِ الوَدَاعِ: يومَ النَّحرِ، ويومَ عرفةَ، واليومَ الثَّانِي مِن أيَّامِ التَّشريقِ.

وفي «سُنَن أبي داودَ»، عَن بعضِ الصَّحابةِ، أنَّهم كانُوا يسيرونَ معَ النَّبيِّ ﷺ؛ فنامَ رجلٌ مِنهُم؛ فانطلق بعضُهم إلَىٰ حبلٍ معهُ؛ فأخذَها؛ ففزعَ! فقالَ ﷺ: «**لَا يحلُّ لمُسلمٍ أَن يُرَوِّعَ مُسلِماً**»[(٥)].

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٠٩١).
(٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٩١).
(٣) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٦٢٠).
(٤) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٢٦٢٣).
(٥) أخرجَهُ أبو داودَ (٥٠٠٤)؛ وصحَّحَه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٧٦٥٨).

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن ابنِ مسعودٍ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إذَا كنتُم ثلاثةً؛ فلَا يتناجَىٰ اثنانِ دُونَ الثَّالِثِ؛ فإنَّ ذلكَ يحزنُهُ**»[1] ـ ولفظُه لمُسلِمٍ ـ.

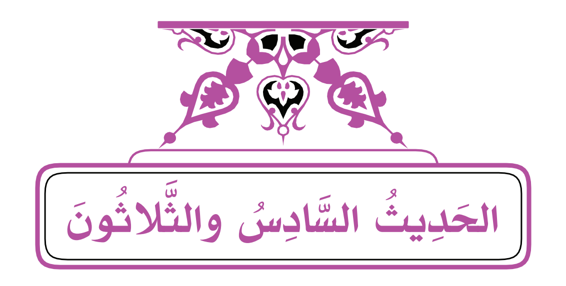
فتضمَّنتْ هذِهِ النُّصوصُ: أنَّ المُسلِمَ لَا يحلُّ لهُ إيصالُ الأذَىٰ إليهِ، بوَجْهٍ مِن الوُجُوهِ مِن قولٍ، أَو فِعْلٍ، بغيرِ حَقٍّ؛ وقدْ قالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب]، وإنَّما جعلَ اللهُ المؤمنينَ إخْوةً؛ ليتعاطَفُوا ويتراحَمُوا.

قالَ رجلٌ لعُمَرَ بنِ عَبْدِ العزيزِ: «اجْعَلْ كبيرَ المسلمينَ عِندَكَ أباً، وصغيرَهُم ابناً، وأَوسَطَهُم أخاً؛ فأيُّ أولئكَ تحبُّ أَن تُسيءَ إليهِ؟!».

ومِن كلام يَحيَىٰ بنِ مُعاذٍ الرَّازيِّ: «لِيكنْ حظُّ المؤمنِ مِنكَ ثلاثةً: إنْ لَم تَنْفَعْهُ؛ فلَا تضرَّهُ، وإنْ لَم تُفْرِحْهُ؛ فلَا تَغُمَّهُ، وإنْ لَم تَمْدَحْهُ؛ فلَا تَذُمَّهُ».



(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٦٢٩٠)؛ ومُسلِمٌ (٢١٨٤).



الحَدِيثُ السَّادِسُ والثَّلاثُونَ

عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:

«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ومَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً؛ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ واللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ؛ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

ومَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَىٰ الْجَنَّةِ، ومَا جَلَسَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ؛ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ.

ومَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.



الشَّرْح

هذَا الحديثُ خرَّجَهُ مُسلِمٌ، عَن أبي هُرَيرةَ.

وخرَّجَا في «الصَّحيحينِ»، عَن ابنِ عُمَرَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**المُسلِمُ أخُو المُسلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ، مَن كانَ في حاجةِ أخيهِ؛ كانَ اللهُ في حاجتِهِ، ومَن فرَّجَ عَن مُسلِمٍ؛ فرَّجَ اللهُ عَنهُ مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن سترَ**

مُسلِماً؛ سترَهُ اللهُ يومَ القيامةِ»[١].



• فقولُه ﷺ: «مَن نَفَّسَ عَن مُؤمنٍ كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيامةِ»:

هذَا يرجعُ إلَىٰ أَنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العَمَلِ.

و(الكُربَةُ): هِيَ الشِّدَّةُ العظيمةُ؛ الَّتِي توقِعُ صاحبَهَا في الكَرْبِ، و(تنفيسُها): أَن يخفِّفَ عَنهُ مِنهَا؛ مأخوذٌ مِن: تَنفيسِ الخناقِ؛ كأنَّه يرخِي لهُ الخناقَ؛ حتَّىٰ يأخذَ نَفَساً.

و(التَّفريجُ) أعظمُ مِن ذلكَ؛ وهُوَ: أَن يزيلَ عَنهُ الكُربَةَ؛ فتنفرجَ عَنهُ كُربَتُهُ، ويزولُ همُّه وغمُّه.

فجزاءُ التَّنفيسِ: التَّنفيسُ، وجزاءُ التَّفريجِ: التَّفريجُ؛ كمَا في حديثِ ابنِ عُمَرَ.



• قولُه ﷺ: «ومَن يسَّرَ علَىٰ مُعْسِرٍ؛ يسَّرَ اللهُ عليهِ ـ في الدُّنيا والآخرَةِ ـ»:

هذَا ـ أيضاً ـ يدلُّ علَىٰ أَنَّ الإعسارَ قدْ يحصلُ في الآخرةِ؛ وقدْ وصفَ اللهُ يومَ القيامةِ بأنَّه (يومٌ عسيرٌ)؛ وقالَ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان].

والتَّيسيرُ علَىٰ المُعْسِرِ في الدُّنيا مِن جِهَةِ المالِ؛ يكونُ بأحدِ أمرَيْنِ:

إمَّا بإنظارِهِ إلَىٰ المَيسرَةِ؛ وذلكَ واجبٌ؛ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٤٤٢)؛ ومُسلِمٌ (٢٥٨٠).

وتارَةً؛ بالوضعِ عَنهُ إنْ كانَ غريماً، وإلَّا فبإعطائِهِ مَا يزولُ بهِ إعسارُهُ. وكلَاهُما لهُ فَضلٌ عظيمٌ.

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**كانَ تاجرٌ يداينُ النَّاسَ، فإذَا رَأَىٰ مُعْسِراً؛ قالَ لصبيانِهِ: تجاوَزُوا عَنهُ؛ لعلَّ اللهَ أَن يتجاوزَ عنَّا؛ فتجاوَزَ اللهُ عَنهُ!**»[١].

وخرَّجَ مُسلِمٌ، مِن حديثِ أبي قتادةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ: «**مَن سَرَّهُ أَن ينجيَهُ اللهُ مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ؛ فلْينفِّسْ عَن مُعْسِرٍ، أَو يضعْ عَنهُ**»[٢].



● قولُه ﷺ: «**ومَن سَتَرَ مُسلِماً؛ سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ**»:

هذَا ممَّا تكاثرَتِ النُّصوصُ بمعنَاه.

وقدْ رُوِيَ عَن بعضِ السَّلَفِ؛ قالَ: «أدركتُ قوماً لَم يكنْ لَهم عيوبٌ؛ فذَكرُوا عيوبَ النَّاسِ؛ فذكرَ النَّاسُ لَهم عيوباً! وأدركتُ أقواماً كانتْ لَهم عيوبٌ، فكفُّوا عَن عيوبِ النَّاسِ؛ فنُسِيَتْ عيوبُهم!»؛ أَو كمَا قالَ.

وشاهدُ هذَا: حديثُ أبي برزةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**يَا معشرَ مَنْ آمنَ بلسانِهِ، ولَم يدخلِ الإيمانُ في قلبِهِ؛ لَا تغتابُوا المسلمينَ، ولَا تتَّبعُوا عوراتِهم؛ فإنَّه مَن تتبَّعَ عوراتِهم؛ تتبَّعَ اللهُ عورتَهُ، ومَن تتبَّعَ اللهُ عورتَهُ؛ يفضحْهُ في بيتِهِ!**»، خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ[٣]، وخرَّجَ التِّرمِذيُّ معنَاهُ مِن حديثِ ابنِ عُمَرَ[٤].



(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢٠٧٨)؛ ومُسلِمٌ (١٥٦٢).
(٢) أخرجَهُ مُسلِمٌ (١٥٦٣).
(٣) أخرجَهُ أحمدُ (٤/ ٤٢٠)؛ وأبو داودَ (٤٨٨٠)؛ وصحَّحه الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٧٩٨٤).
(٤) أخرجَهُ التِّرمذيُّ (٢٠٣٢). وفي البابِ أحاديثُ بمعنَاهُ؛ مِن روايةِ ثوبانَ، والبراءِ، وبريدةَ، وعَبْدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُم.

• قولُه ﷺ: «واللهُ في عَوْنِ العَبْدِ؛ مَا كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخيهِ»:

بعثَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ قوماً مِن أصحابِهِ في قضاءِ حاجةٍ لرَجُلٍ؛ وقالَ لَهم: مُرُّوا بثابِتٍ البُنانيِّ؛ فخُذُوهُ معكُم؛ فأَتَوا ثابِتاً؛ فقالَ: أنَا معتكفٌ! فرَجَعُوا إلَىٰ الحَسَنِ؛ فأخبرُوهُ؛ فقالَ: «قُولُوا لهُ: يَا أعْمَشُ؛ أمَا تَعْلَمُ أنَّ مشيكَ في حاجةِ أخيكَ المُسلِمِ؛ خيرٌ لكَ مِن حَجَّةٍ بعدَ حَجَّةٍ؟!»؛ فرَجَعُوا إلَىٰ ثابِتٍ؛ فتركَ اعتكافَهُ، وذهبَ معَهُم!

وكانَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ يحلبُ للحيِّ أغنامَهُم، فلمَّا استُخلِفَ؛ قالتْ جاريةٌ مِنهُم: الآنَ لَا يحلبُهَا! فقالَ أبو بكرٍ: «بلَىٰ! وإنِّي لأَرْجُو أن لَا يغيِّرَنِي مَا دخلتُ فيهِ، عَن شيْءٍ كنتُ أفعلُهُ» أَو كمَا قالَ.

وإنَّما كانُوا يقومونَ بالحلابِ؛ لأنَّ العربَ كانتْ لَا تحلبُ النِّساءُ مِنهُم؛ وكانُوا يستقبحونَ ذلكَ؛ فكانَ الرِّجالُ إذَا غابُوا؛ احتاجَ النِّساءُ إلَىٰ مَن يحلبُ لَهُنَّ.

وكانَ عُمَرُ يتعاهدُ الأراملَ؛ فيستقِي لَهنَّ الماءَ باللَّيلِ، ورَآهُ طلحةُ باللَّيلِ يدخلُ بيتَ امرأةٍ؛ فدخلَ إليهَا طلحةُ نهاراً؛ فإذَا هِيَ عجوزٌ، عمياءُ، مقعدَةٌ! فسألَها: مَا يصنَعُ هذَا الرَّجلُ عِندَكِ؟ قالتْ: «هذَا لهُ منذُ كذَا وكذَا يتعاهدُنِي؛ يأتينِي بمَا يصلحُنِي، ويخرِجُ عنِّي الأذَىٰ»!

وكانَ أبو وائلٍ[١] يطوفُ علَىٰ نساءِ الحيِّ وعجائزِهِم كلَّ يومٍ؛ فيشترِي لَهنَّ حوائجَهُنَّ ومَا يصلحُهُنَّ.

وقالَ مجاهدٌ: «صحبتُ ابنَ عُمَرَ في السَّفَرِ لأخدِمَهُ؛ فكانَ يخدِمُنِي»!

---

(١) أبو وائلٍ: هُوَ شقيقُ بنُ سلمةَ، أحدُ كبارِ التَّابعينَ، أدركَ النَّبيَّ ﷺ ولم يَرَهُ، وحدَّثَ عَن الخلفاءِ ـ سِوَىٰ أبي بكرٍ ـ، وقيلَ: حدَّثَ عَنهُ، وهُوَ مِن أعلم النَّاسِ بحديثِ ابنِ مسعودٍ، ماتَ قبلَ المئةِ. قالَ الذَّهبيُّ: «قلتُ: قدْ كانَ هذَا السَّيِّدُ رأساً في العِلْمِ والعَمَلِ». انظر: «السِّير» (٤/ ١٦١).

وكانَ كثيرٌ مِن الصَّالحينَ يشترطُ علَىٰ أصحابِهِ في السَّفَرِ أَن يخدِمَهُم!

• قولُه ﷺ: «**ومَن سَلَكَ طريقاً يلتمِسُ فيهِ عِلْماً؛ سهَّلَ اللهُ لهُ بهِ طريقاً إلَىٰ الجنَّةِ**»:

سلوكُ الطَّريقِ لالتماسِ العِلْمِ؛ يدخلُ فيهِ: سلوكُ الطَّريقِ الحقيقيِّ؛ وهُوَ: المشيُ بالأقدامِ إلَىٰ مجالِسِ العُلماءِ؛ ويدخلُ فيهِ: سلوكُ الطُّرُقِ المؤديةِ إلَىٰ حصولِ العِلْمِ؛ مِثْل: حفظِهِ، ودِرَاستِهِ، ومذاكرتِهِ، ومطالعتِهِ، وكتابتِهِ، والتَّفهُّمِ لهُ، ونحوِ ذلكَ مِن الطُّرقِ المعنويَّةِ؛ الَّتِي يُتوصَّلُ بِهَا إلَىٰ العِلْمِ.

• وقولُه ﷺ: «**سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقاً إلَىٰ الجنَّةِ**»:

قدْ يرادُ بذلكَ: أنَّ اللهَ يسهِّلُ لهُ العِلْمَ الَّذِي طلبَهُ، ويُيَسِّرُهُ عليهِ؛ فإنَّ العِلْمَ طريقٌ موصلٌ إلَىٰ الجنَّةِ، وقدْ يرادُ أيضاً: أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ لطالبِ العِلْمِ ـ إذَا قصدَ بطلبِهِ وَجْهَ اللهِ ـ الانتفاعَ بهِ، والعملَ بمُقتضاهُ؛ فيكونُ سبباً لهدايتِهِ، ولدخولِ الجنَّةِ.

وقدْ يُيَسِّرُ اللهُ لطالبِ العِلْمِ علوماً أُخَرَ؛ ينتفِعُ بِهَا، وتكونُ موصلةً لهُ إلَىٰ الجنَّةِ.

وقدْ يدخلُ في ذلكَ أيضاً: تسهيلُ طريقِ الجنَّةِ الحسيِّ يومَ القيامةِ؛ وهُوَ: الصِّراطُ، ومَا قبلَهُ، ومَا بعدَهُ مِن الأهوالِ.

فلَا طريقَ إلَىٰ معرفةِ اللهِ، وإلَىٰ الوصولِ إلَىٰ رضوانِهِ، والفوزِ بقُربِهِ، ومجاورتِهِ في الآخرةِ؛ إلَّا بالعِلْمِ النَّافِعِ؛ الَّذِي بعثَ اللهُ بِهِ رُسلَهُ، وأنزلَ بهِ كتبَهُ.



• قولُه ﷺ: «ومَا جلسَ قومٌ في بيتٍ مِن بيوتِ اللهِ؛ يتلونَ كتابَ اللهِ، ويتدارَسُونَهُ بينَهم؛ إلَّا نزلتْ عَلَيْهِم السَّكينَةُ، وغَشِيَتْهم الرَّحمةُ، وحفَّتْهم الملائكةُ، وذكرَهُم اللهُ فيمَن عِندَهُ»:

هذَا يدلُّ علَىٰ استحباب الجلوسِ في المساجدِ؛ لتلاوةِ القُرآنِ ودراستِهِ.

وقدْ أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ جزاءَ الَّذِينَ يجلسونَ في بيتِ اللهِ يتدارسونَ كتابَ اللهِ أربعةُ أشياءَ:

أحدُها: تنزُّلُ السَّكينةِ عَلَيْهِم.

والثَّاني: غشيانُ الرَّحمةِ؛ قالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

الثَّالثُ: أنَّ الملائكةَ تحفُّ بِهم.

الرَّابعُ: أنَّ اللهَ يذكرُهُم فيمَن عِندَهُ؛ وذِكْرُ اللهِ لعَبْدِهِ: هُوَ ثناؤُهُ عليهِ في الملإِ الأعلَىٰ بينَ ملائكتِهِ، ومُباهاتِهم بهِ، وتنويهِهِ بذِكْرِهِ.

وهذِهِ الخصالُ الأربعُ لكلِّ مجتمعينَ علَىٰ ذِكْرِ اللهِ تعالَىٰ.



• قولُه ﷺ: «ومَن بَطَّأَ بِهِ عملُهُ؛ لَم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»:

معنَاهُ: أنَّ العملَ هُوَ الَّذِي يبلغُ بالعبدِ درجاتِ الآخرةِ؛ فمَنْ أبطأَ بِهِ عملُهُ أَن يبلغَ بِهِ المنازلَ العاليةَ عِندَ اللهِ تعالَىٰ؛ لَم يُسرِعْ بِهِ نَسَبُهُ فيبلِّغْهُ تِلْكَ الدَّرجاتِ؛ فإنَّ اللهَ رتَّبَ الجزاءَ علَىٰ الأعمالِ، لَا علَىٰ الأنسابِ؛ كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون].

وفي «الصَّحيحينِ»، عَن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - حِينَ أُنزلَ عليهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] -: «**يَا معشرَ قُرَيْشٍ؛ اشترُوا أنفسَكُم مِن اللهِ! لَا أُغنِي عَنكُم مِن اللهِ شيئاً! يَا عبَّاسُ بنَ عَبْدِ المطَّلبِ؛ لَا أُغني عَنكَ مِن اللهِ شيئاً! يَا صفيَّةُ عمَّةَ رَسُولِ اللهِ؛ لَا أُغنِي عَنكَ مِن اللهِ**

شيئاً! يَا فاطمةُ بنتَ محمَّدٍ؛ سَلِينِي مَا شِئْتِ؛ لَا أُغنِي عنكِ مِن اللهِ شيئاً!»[١].

ويشهدُ لهذَا: مَا في «الصَّحيحينِ»، عَن عمرِو بنِ العاصِ، أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ، يقولُ: «**إنَّ آلَ أَبِي فلانٍ ليسُوا لِي بأولياءَ؛ وإنَّما وليِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنينَ**»[٢]؛ يشيرُ إلَىٰ أنَّ ولايتَهُ لَا تُنالُ بالنَّسَبِ وإنْ قَرُبَ؛ وإنَّما تُنالُ بالإيمانِ والعملِ الصَّالِحِ؛ فمَن كانَ أكملَ إيماناً وعملاً؛ فهُوَ أعظمُ ولايةً لهُ، سواءً كانَ لهُ مِنهُ نسبٌ قريبٌ، أَو لَم يكنْ.

وفي هذَا المعنَىٰ يقولُ بعضُهم:

لَعَمْرُكَ؛ مَا الإنسانُ إلَّا بدينِهِ ... فلَا تترِكِ التَّقْوَىٰ اتِّكالاً علَىٰ النَّسَبِ

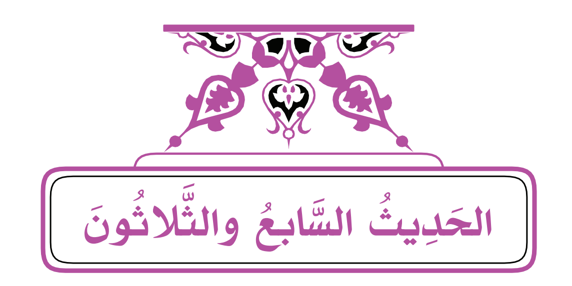
لقدْ رَفَعَ الإسلامُ سلمانَ فارِسٍ ... وقدْ وضعَ الشِّرْكُ الشَّقيَّ أبَا لهبِ



---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٤٧٧١)؛ ومُسلِمٌ (٢٠٦).

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٩٩٠)؛ ومُسلِمٌ (٢١٥).



الحَدِيثُ السَّابعُ والثَّلاثُونَ

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ، قَالَ:

«إِنَّ اللهَ ﷻ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ.



الشَّرح

هذا الحديثُ خرَّجَاهُ عَن ابنِ عبَّاسٍ، وفي رِوايةٍ لِمُسلِمٍ زيادةٌ في آخِرِ الحديثِ؛ وهِيَ: «**أَو محاهَا اللهُ، ولَن يهلكَ علَىٰ اللهِ إلَّا هالكٌ**».

وفي المعنَىٰ أحاديثُ كثيرةٌ.

فتضمَّنتْ هذِهِ النُّصوصُ كتابةَ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، والهمَّ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ؛ فهذِهِ أربعةُ أنواعٍ:

* النَّوعُ الأوَّلُ: عملُ الحسناتِ؛ فتضاعفُ الحسنةُ بعشرِ أمثالِها، إلَىٰ سَبْعِ مِئةِ ضِعْفٍ، إلَىٰ أضعافٍ كثيرَةٍ.

* النَّوعُ الثَّانِي: عملُ السَّيِّئات؛ فتُكتبُ السَّيِّئةُ بمِثْلِها مِن غيرِ مضاعفةٍ؛

كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام].

لكنَّ السَّيِّئَةَ تعظُمُ أحياناً بشرفِ الزَّمانِ أو المكانِ؛ وكانَ جماعةٌ مِن الصَّحابة يتَّقونَ سُكنَىٰ الحَرَمِ؛ خشيةَ ارتكابِ الذُّنوبِ فيهِ! مِنهُم: ابنُ عبَّاسٍ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ، وكذلكَ كانَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ يفعلُ.

قالَ إسحاقُ بنُ منصورٍ: قلتُ لأحمدَ في شيْءٍ مِن الحديثِ: أنَّ السَّيِّئَةَ تُكتَبُ بأكثرَ مِن واحدةٍ؟ قالَ: «لَا؛ مَا سَمِعْنَا، إلَّا بمكةَ؛ لتعظيمِ البَلَدِ»، وقالَ إسحاقُ بنُ راهويهِ كمَا قالَ أحمدُ.

* **النَّوعُ الثَّالثُ**: الهمُّ بالحسناتِ؛ فتُكتبُ حسنةً كاملةً ـ وإنْ لَم يعمَلْهَا ـ؛ كمَا في حديثِ ابنِ عبَّاسٍ، وفي حديثِ خُريم بن فاتكٍ: «**مَن هَمَّ بحسنةٍ فلَم يعمَلْها، فعَلِمَ اللهُ أنَّه قدْ أشعرَهَا قلبَهُ، وحرصَ عَلَيها؛ كُتبت لهُ حسنةٌ**»[1]؛ وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ المرادَ بالهمِّ هُنَا هُوَ: العزمُ المصمِّمُ؛ الَّذِي يوجد معه الحرصُ علَىٰ العملِ، لَا مجرَّدُ الخطرةِ الَّتِي تخطرُ، ثُمَّ تنفسخُ، مِن غيرِ عزمٍ ولَا تصميمٍ.

ومتَىٰ اقترنَ بالنِّيَّةِ قولٌ أَو سعيٌ؛ تأكَّدَ الجزاءُ، والتحقَ صاحبُهُ بالعاملِ؛ كمَا رَوَىٰ أبو كبشةَ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّما الدُّنيا لأربعةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رزقَهُ اللهُ مالاً وعِلْماً؛ فهُوَ يتَّقِي فيهِ ربَّهُ، ويصلُ بهِ رَحِمَهُ، ويعلمُ للهِ فيهِ حقّاً؛ فهذَا بأفضلِ المنازِلِ، وعَبْدٍ رزقَهُ اللهُ عِلْماً، ولَم يرزقْهُ مالاً؛ فهُوَ صادقُ النِّيَّةِ؛ يقولُ: لَو أنَّ لِي مالاً؛ لعملتُ بعملِ فُلانٍ؛ فهُوَ بنيَّتِهِ؛ فأجرُهُما سواءٌ! وعَبْدٍ رزقَهُ اللهُ مالاً، ولَم يرزقْه عِلْماً؛ يخبطُ في مالِهِ بغيرِ عِلْمٍ**[2]؛ **لَا يتَّقِي فيهِ ربَّهُ، ولَا يصلُ فيهِ رَحِمَهُ، ولَا يعلمُ للهِ فيهِ حقّاً؛ فهذَا بأخبثِ المنازِلِ، وعَبْدٍ لَم يرزقْهُ اللهُ مالاً ولَا عِلْماً؛ فهُوَ يقولُ: لَو أنَّ لِي مَالاً؛ لعملتُ فيهِ بعملِ فُلانٍ؛ فهُوَ بنيَّتِهِ؛**

---

(١) أخرجَهُ أحمدُ (٤/ ٣٢٢)؛ وابنُ حِبَّانَ (٦١٧١) ـ وانظر: تعليقَ محقِّقهِ عليهِ ـ.

(٢) هكذا! وفي الأصولِ المخرَّجِ مِنهَا: «**فهُوَ يخبطُ في مالِهِ بغيرِ عِلْمٍ**».

فوِزرُهُما سَواءٌ!»، خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ، والتِّرمِذيُّ، وابنُ ماجَه[١].

وقدْ حُمِلَ قولُه ﷺ: «**فهُما في الأجرِ سواءٌ**» علَىٰ استوائِهِما في أصلِ أجرِ العَمَلِ، دُونَ مضاعفةٍ؛ فالمضاعفةُ يختصُّ بِهَا مَن عَمِلَ العملَ، دُونَ مَن نواهُ فلَم يَعْمَلْهُ؛ فإنَّهما لَو استويَا مِن كلِّ وَجْهٍ؛ لكُتِبَ لِمَن همَّ بالحسنةِ ولَم يعمَلْها عشرُ حسناتٍ؛ وهُوَ خلافُ النُّصوصِ كلِّها!

* **النَّوعُ الرَّابعُ**: الهمُّ بالسَّيِّئاتِ مِن غيرِ عَمَلٍ لَها؛ ففِي حديثِ ابنِ عباسٍ: أنَّها تُكتَبُ حسنةً كاملةً، وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ قالَ: «**إنَّما تركَهَا مِن جرَّايَ**» - يَعنِي: مِن أجلِي -؛ وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ المرادَ مَن قدرَ علَىٰ مَا هَمَّ بهِ مِن المعصيةِ؛ فتركَهُ للهِ تعالَىٰ؛ وهذا لا ريبَ في أنَّه يُكتَبُ لهُ بذلكَ حسنةٌ؛ لأنَّ تركَهُ للمعصيةِ عملٌ صالِحٌ.

فأمَّا إنْ همَّ بمعصيةٍ، ثُمَّ تركَ عملَهَا؛ خوفاً مِن المخلوقينَ، أَو مراءاةً لَهم؛ فقدْ قيلَ: إنَّه يُعاقَبُ علَىٰ تركِهَا بهذِهِ النِّيَّةِ؛ لأنّ تقديمَ خوفِ المخلوقينَ علَىٰ خوفِ اللهِ مُحرَّمٌ، وكذلكَ قصد الرِّياءِ للمخلوقينَ مُحرَّمٌ! فإذَا اقترنَ بِهِ تركُ المعصيةِ لأجلِهِ؛ عوقبَ علَىٰ هذَا التَّرْكِ!

وأمَّا إنْ سعَىٰ في حصولِها بمَا أمكنَهُ، ثُمَّ حالَ بينَهُ وبينها القَدَرُ؛ فقدْ ذكرَ جماعةٌ أنَّه يُعاقَبُ عليهَا حينَئذٍ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ تجاوزَ لأُمَّتِي عمَّا حدَّثَتْ بِهَا أنفسَهَا، مَا لَم تكلَّمْ بهِ، أَو تَعْمَلْ**»[٢]؛ ومَن سعَىٰ في حصولِ المعصيةِ جهدَهُ، ثُمَّ عجزَ عنهَا؛ فقدْ عَمِلَ! وكذلكَ؛ قول النَّبيِّ ﷺ: «**إذَا التقَىٰ المُسلِمانِ بسَيفَيهِما؛ فالقاتِلُ والمَقتولُ في النَّارِ**»! قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هذَا القاتلُ؛ فمَا بالُ المَقتولِ؟! قالَ: «**كانَ حريصاً علَىٰ قتلِ صاحبِهِ**»[٣]!

---

(١) أخرجَهُ أحمدُ (٤/ ٢٣٠)؛ والتِّرمِذيُّ (٢٣٢٥)؛ وابنُ ماجَه (٤٢٢٨)، قالَ التِّرمذيُّ: «هذَا حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٢٦٩)؛ ومُسلِمٌ (١٢٧).

(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١)؛ ومُسلِمٌ (٢٨٨٨).

وأمَّا إِن انفسختْ نِيَّتُهُ، وفترتْ عزيمتُهُ، مِن غيرِ سببٍ مِنهُ؛ فهلْ يُعاقَبُ علَىٰ مَا همَّ بهِ مِن المعصيَةِ، أم لَا؟ هذَا علَىٰ قِسْمَيْنِ:

أَحدهما: أَن يكونَ الهمُّ خاطراً خطرَ، ولم يساكنْهُ صاحبُهُ، ولم يعقدْ قلبَهُ عليهِ؛ بلْ كرهَهُ، ونفرَ مِنهُ؛ فهذَا معفوٌّ عَنهُ؛ وهُوَ كالوَساوسِ الرَّديئةِ الَّتِي سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَنهَا؛ فقالَ: «**ذاكَ صَرِيحُ الإيمانِ**»(١).

القِسْم الثَّانِي: العزائم المصمَّمة؛ الَّتِي تقعُ في النُّفوسِ وتدومُ، ويُساكنُهَا صاحبُها؛ فهذَا أيضاً نَوعانِ:

أَحدُهما: مَا كانَ عملاً مستقلّاً بنفسِهِ مِن أعمالِ القلوبِ ـ كالشَّكِّ في الوحدانيَّةِ، أَو النُّبُوَّةِ، أَو البعثِ، أَو غير ذلكَ مِن الكُفْرِ والنِّفاقِ ـ؛ فهذَا يُعاقَبُ عليهِ العَبْدُ، ويصيرُ بذلكَ كافراً أَو منافِقاً.

ويُلحَقُ بهذَا القِسْمِ: سائرُ المعاصِي المتعلِّقةِ بالقلوبِ؛ كمحبَّةِ مَا يبغضُهُ اللهُ، وبُغْضِ مَا يحبُّهُ اللهُ، والكِبْرِ، والعُجْبِ.

النَّوعُ الثَّانِي: مَا لَم يكنْ مِن أعمالِ القلوبِ؛ بلْ كانَ مِن أعمالِ الجوارِحِ؛ كالزِّنَىٰ، والسَّرِقَةِ، وشُربِ الخَمْرِ، والقتلِ، والقذفِ، ونَحْوِ ذلكَ: إِذَا أصرَّ العَبْدُ علَىٰ إرادةِ ذلكَ، والعزمِ عليهِ؛ ففي المؤاخذَةِ عليهِ قولانِ مشهورانِ للعُلماءِ:

أَحدُهما: يؤاخذُ بهِ؛ ورَجَّحَ هذَا القولَ كثيرٌ مِن الفقهاءِ والمحدِّثينَ والمتكلِّمينَ مِن أصحابِنَا وغيرِهم؛ واستدلُّوا لهُ بنحوِ قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقولِهِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وبنحوِ: «**الإثمُ: مَا حاكَ في صَدْرِكَ، وكرهتَ أَن يطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ**»(٢)، وحملُوا قولَهُ ﷺ: «**إنَّ اللهَ تجاوزَ لأُمَّتِي عمَّا حدَّثَتْ بهِ أنفسَهَا،**

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (١٢٦).

(٢) وهُوَ الحديثُ السَّادِسُ والعِشْرُونَ مِن «الأربعين النَّوويَّة».

ما لم تكلَّمْ بهِ، أَو تَعْمَلْ»[١] علَىٰ الخطراتِ؛ وقالُوا: مَا ساكنَهُ العَبْدُ، وعقدَ قلبَهُ عليهِ؛ فهُوَ مِن كَسْبِهِ وعملِهِ؛ فلَا يكونُ معفُوّاً عَنهُ.

ومِن هؤلاءِ مَن قالَ: إنَّه يُعاقَبُ عليهِ في الدُّنيا بالهمومِ والغمومِ. وقيلَ: بلْ يُحاسَبُ العَبْدُ بهِ يومَ القيامةِ؛ فيقفُهُ اللهُ عليهِ، ثُمَّ يعفُو عَنهُ، ولَا يُعاقبُهُ بهِ؛ فتكونُ عقوبتُهُ المحاسبَةَ ـ وهذَا هُوَ اختيارُ ابنِ جريرٍ ـ.

القَوْلُ الثَّانِي: لَا يؤاخَذُ بمجرَّدِ النِّيَّةِ مطلقاً. ونُسبَ ذلكَ إلَىٰ نَصِّ الشَّافعيِّ، وهُوَ قولُ ابنِ حامدٍ ـ مِن أصحابِنَا ـ؛ عملاً بالعُمُوماتِ.

• قولُه ـ في حديثِ رِوايةِ مُسلِمٍ ـ: **«أَو محاهَا اللهُ»**:

يَعنِي: أنَّ عملَ السَّيِّئةِ إمَّا أَن تُكتبَ لعاملِهَا سَيِّئَة واحدةٌ، أَو يمحُوها اللهُ بما شاءَ مِن الأسبابِ؛ كالتَّوبةِ، والاستغفارِ، وعملِ الحسناتِ.



• قولُه ﷺ: **«ولَا يهلكُ علَىٰ اللهِ إلَّا هالكٌ»**:

يَعنِي: بعدَ هذَا الفَضْلِ العظيمِ مِن اللهِ، والرَّحمةِ الواسعةِ مِنهُ، بمضاعفةِ الحسناتِ، والتَّجاوزِ عَن السَّيِّئات؛ لَا يهلكُ علَىٰ اللهِ إلَّا مَن هلكَ، وتجرَّأَ علَىٰ السَّيِّئاتِ، ورغبَ عَن الحسناتِ، وأعرضَ عَنها.

ولهذَا؛ قالَ ابنُ مسعودٍ: «ويلٌ لِمَن غلبتْ وحدانُهُ عشراتِهِ»[٢]!

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والنَّسائيُّ، والتِّرمِذيُّ، مِن حديثِ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرٍو، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«خلَّتانِ؛ لَا يحصيهِما رجلٌ**

---

(١) وهُوَ في «الصَّحيحينِ» ـ كمَا سبقَ قريباً ـ.

(٢) يَعنِي: أنَّ مَن غلبتْ سيِّئاتُهُ (وهِيَ: الوحدانُ) حسناتِهِ (وهِيَ: العشراتُ)؛ فهُوَ خاسرٌ؛ فويلٌ لهُ! وإنَّما سُمِّيَت السَّيِّئاتُ بالوحدانِ؛ لأنَّ الواحدةَ مِن السَّيِّئاتِ لَا تُكتَبُ إلَّا واحدةً، وكذلكَ قالَ في الحسناتِ إنَّها عشراتٌ؛ لأنها تُكتَب بعشرِ أمثالِها.